

الباب السادس

في الأدب العربي في القرن التاسع عشر

في رأي أن كل أدب كغدير الماء ، إذا لم تمتد من حين لآخر بماء جديد تعفن وأنتن ، وكالأسرة الكبيرة إذا ظل أفرادها يتزاوجون فيما بينهم هزلوا وذبلوا وشاعت فيهم الأمراض ما لم يتزاوجوا من غيرهم ، وله عمر كعمر الفرد : صبا ، فشاب فكهولة ، فشيخوخة ، ولكنه يمثل الدور ثانية في بنيه ولا يكون ذلك إلا بالتزاوج .

هذا في نظري تاريخ كل أدب : شرقي أو غربي . فإن نحن نظرنا إلى الأدب العربي وجدنا أن الأدب الجاهلي وامتداده في العصر الإسلامي بدأ يركد ، حتى امتزجت الأمة العربية بغيرها من الفرس والروم والهند وغيرهم ، وامتزجت الثقافة العربية بالثقافة الفارسية وبالثقافة الهندية وبالثقافة اليونانية ، فبدأ الأدب العربي يحيا حياة جديدة ظهر أثرها في مثل الجاحظ وتأليفه في العصر الإسلامي .

وقد يبدو غريبا أن أقول إن الأدب العربي قد ركذ قبيل هذا الامتزاج مع ما عرف عنه من جزالة اللفظ وجودة السبك وفصاحة اللسان ، ولكن مظهر الركود في نظري كان قلة المعاني الجديدة ، وتكرار المعاني القديمة ، واقتصار الأدب على الأقوال المأثورة ، في الموضوعات الموروثة ، حتى طلع الجاحظ وأمثاله بموضوعات جديدة ومعان جديدة وأساليب جديدة ، فكان هذا هو التجديد الذي أتى به الامتزاج الجديد ، ونشأ عنه العودة إلى الشباب بعد الشيخوخة .

ثم صار هذا الجديد قديما ، وركذ ماء الغدير لما انقطع المدد وأصبح الشباب هرما . ذلك أن الشرق بعد الحروب الصليبية أغلق على نفسه وضعف اتصاله بالغرب ولم يكدر يعلم شيئا مما يجري في أوروبا — نعم كان هناك قناصل للدول وتجار أجنب ولكن هؤلاء كانوا يعيشون في شبه عزلة ، ولا تشعر الشعوب الشرقية بهم وخاصة من الناحية الثقافية ، ولما بدأ

الغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر يضع أساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك مما غير وجه حياته تغييرا تاما لم يصل إلى الشرق شيء منها ولم يشمر بها ، واستمرّ في دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الأولى من غير روح ، ويعيش على الثقافة القديمة بعد أن صارت تماثيل .

في الغرب كان بدء النهضة والثورة على القديم ، وبناء أسس جديدة لحياة جديدة ، وتحكيم العقل فيما يعرض من مشاكل ، وتحرير العواطف من كثير من القيود ، ووضع كل قضية موضع البحث والتجربة . وفي الشرق كان الجمود وظلم الحكام مع الاستكانة من الشعب ، وترف الأشراف مع فقر الشعب — كان الشرق والغرب يسيران متحاذيين ولكن اختلف فيما بعد اتجاههما ، فسار الغرب إلى الأمام وسار الشرق إلى الوراء ، وتنبه الغرب فطالب حكامه الظلمين بتحقيق العدل ، واستنم الشرق على الظلم زاميا عبثه على القدر .

وأصاب الأدب من ذلك ما أصاب سائر مناحي الحياة ، فقد كان من أكبر أسباب النهضة الأدبية الأوروبية التفاتهم إلى وجوب الاستمتاع بالحياة الدنيا ونعيمها ، بعد أن كان المثل الأعلى هو الزهد والانتقطاع للحياة الأخرى ، وعلى هذا الاتجاه سار الأدب يقوم الحياة الدنيا ونعيمها تقويما كبيرا في القصص وسائر أنواع الأدب — ثم من المظاهر الجديدة التي كانت عندئذ في الأدب ثورتهم على الفوارق بين الطبقات فبعد أن كانت الروايات إنما تتعرض لوصف الحياة الأرستقراطية فإذا عرضت لحياة الطبقة الوسطى أو الدنيا فلا يضحك الطبقة العليا ثار الأدباء على هذه الأوضاع وصار كوخ الفلاح موضوعا للأدب كبلاط الملوك ، واستمدت المآسي والملاحم موضوعاتها من الحياة المألوفة عند أوساط الناس وقراءهم .

ومظهر آخر في الأدب الغربي هو استئزال الأدب إلى عالم الواقع ، فالقطعة الأدبية صارت تقم بمحصولها الفكري لا بجمالها الفني وحده ، وعدت من الأدب الرسائل السياسية والمفالات الاجتماعية .

وفي الشرق كان الأدب حائرا بين الزاني إلى الأغنياء والكبراء في المدح أو الترفع عن ذلك إلى الانصراف للحياة الأخرى بإنتاج الأدب الديني في المدائح النبوية وغيرها ،

أما الأدب الدينى الذى يصور حياة الشعوب ويعرض للمسائل الاجتماعية والسياسية ويفتح آفاقاً جديدة فلم يكن إلا فى القليل النادر — ولذلك أنتجت النهضة الأوروبية أدب شكسبير وراسين وجوته وأمثالم فى حين أنتجت الحياة الشرقية أدبا يعنى بأنواع البديع كان حجة الحموى أو أدبا يعنى بمدح الأسماء كالأرتقيات لصفى الدين الحلى ، أو أدبا يعنى بالناحية الدينية كالمزنية والبردة للبوصيرى . أما الأدب الذى يمثل الشعب فى بؤسه والحكام فى ظلمهم أو الذى يفتح فى الأمة روح الثورة على الظلمين ، أو الأدب الذى يدعو إلى أن يذبوا الشعب مكانه فقلما نظفر به إذا استثنينا ابن خلدون ، وقليلاً من أمثاله . ومع هذا كله كانت مصر بعد سقوط بغداد فى يد التتار أقوى الضعفاء أو أسمى السكارى .

وقد صورنا الأدب العربى إلى آخر القرن الثامن عشر كدأ فى شعره ونثره ، وسائر فنونه ، وكان أهم سبب فى هذا الضعف هو ضعف الحياة الاجتماعية لأن الأدب مرتبط بأشد الارتباط بالحياة فإذا ساءت الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، ولم ينم بالحياة إلا الأغنياء ، وغرق الشعب كله فى البؤس ، وعمل معاملة الأنعام كسد الأدب وأصبح طرفة من الطرف التى تُتدَّم للوك والأسماء ، كالجوهرة الكريمة أو القطعة من الصناعة الفنية فإذا دبَّت الحياة فى الأمة ، وشعرت بنفسها ، وقومت العدل والحريّة تقويماً صالحاً ، واستاءت من الظلم ، ورفعت صوتها لحرارته ، وطالبت بتحقيق العدل ، وقومت مشاعرها فى الحب والكره ، والعدل والظلم ، وقدّرت تقديراً صحيحاً موقف الحاكم من المحكوم والمحكوم من الحاكم ، حيى الأدب ، وتجدد فى موضوعاته وأساليبه .

وهكذا كان تاريخ الأدب فى كل عصر : تخمد الحياة الاجتماعية فيخمد ، وتحيا فيحيا . نعم قد تركد الحياة الاجتماعية ولكن ترزق الأمة بأديب كبير ، أو فيلسوف كبير ، يشعر بما لا يشعر به قومه ، ويتجه اتجاهاً صحيحاً حيث يتجه سائر شعبه اتجاهاً خطأ ، فيرفع صوته بالدعوة الصحيحة ، و بإيقاظ الشعور القومى ، وينادى بالتوجيه جهةً غير التى يتجه إليها شعبه ، ويعرض فى دعوته هذه إلى الاضطهاد والتسفيه بل والقتل أحياناً ، ولكن تحيا فكرته ودعوته ، ويتسلها خلف له يزيد ما اشتمالاً حتى يعا الشعب ، ويحول اتجاهاً

بين اتجاه فاسد إلى اتجاه صحيح - ومع الأسف لم يوجد مثل هؤلاء الأفراد الأفاضل في الشرق في العصور الأخيرة التي أرخنا لها من قبل ، وإن وجدوا فصوت أفراد لم يخلفوا مدارس ، وأخذت أنفاسهم وحركاتهم في أسرع وقت ممكن ، أوضاع دعوتهم في تقاليد الشعب وحالته السيئة التي كان عليها .

واعلم سبب ذلك أن الشرق قد توالى عليه من المظالم ما أفقد الشعب روحه ، وأن الحياة في الشرق ورفق الجور الطبيعي وتلطيف العاطفة الدينية لهذه المساوي بكثرة الأوقاف والإحسان وما إلى ذلك جعل الحصول على القوت الضروري في الشرق أيسر تناولاً مما هو في الغرب فكان إذا ارتفعت الدعوة باستنارة الشهور بالظلم على يد أحد المصلحين في الغرب وجدت لها استجابة من الشعب أكثر مما تجد لها في الشرق .

ثم إن الشرق قد توالى عليه من خارجية من قديم أكثر مما أصاب الغرب فقد ظلّ أمداً طويلاً منكوباً بالغزو الاستعماري مما حرم الأمم عزة استقلالها ، وطمانينة استقرارها ، فالظلم الواقع على الشعوب الشرقية لم يكن من حكماها الذين هم منها فقط ، بل أسوأ من ذلك ما كان من خارجها ، ولم يصب الغرب بمثل هذه المصيبة الطويلة . والاستقلال في السياسة يولد الاستقلال في الفكر ، والاستقلال في الأدب ، وتكوين الشخصيات في سائر أنواع العلوم والفنون . وقدان الاستقلال السياسي كفيل بضباع أنواع الاستقلال المختلفة علمية كانت أو فنية أو أدبية .

وعلى كل فقد ظلت الحياة الأدبية على نحو ما وصفنا إلى أن كانت النهضة الحديثة للشرق قبيل مستهل القرن التاسع عشر .

وترجع أسباب النهضة إلى عوامل مختلفة أهمها :

المنظاك الشرقى بالنزب

فالتغرب لما قوى سياسياً وفنياً وحريةً اتجه إلى احتلال الشرق واستناره واستفلاله ، وساعد على طمعه في هذا سوء حال المملكة العثمانية وقد كان الشرق جاهلاً كل الجهل بما

يجرى في الغرب من أساليب سياسية في الحكم وأساليب حرية في الحرب ، وعلم وأدب وفن في الحياة العسكرية على حين كان الغرب علماً بكل ما في الشرق علماً واسعاً بما يبث من عيون يمدون أمهم بتفاصيل ما يجري في الشرق ، ويؤثفون الكتب في آثاره ، وعاداته وتقاليده ، ويضعون التقارير في قوائمه الحريصة على حين لا يذهب من الشرق إلى الغرب إلا القليل النادر ولمسبات قوية ككفر إبراهيم بك الكبير أخذه الإنجليز ليقم في بلادهم فيؤمن بعظمتهم ، ثم يتخذونه عوناً لهم بمصر في سياستهم ، فأقام في اسكندرية نحواً من خمس سنوات ، والسكن لم يكن لهذه الحادثة وأمثالها من أثر على أو أدبى أو فننى . فلم يشعر الشرق إذن بقوة الغرب ولم يستفد منها إلا بعد أن فاجأه بالغزو .

شعرت مصر بذلك حين دهمتها الحملة الفرنسية إذ أقبل نابليون سنة ١٧٩٨ بفتح الإسكندرية ، وابتقل منها إلى فتح غيرها من البلاد المصرية في سهولة ويسر ؛ ولم يكن الحكم الفرنسيين لمصر حكماً صالحاً يبعث فيها النهضة إلا ما كان عن طريق غير مباشر من اتصال المصريين بهم ووقوفهم على بعض نواحي تقدمهم واطلاؤهم على مخترعاتهم وعلى نتائج بحوث علمائهم .

ولما جاء محمد على قوسى هذا الاتصال بين الشرق والغرب ؛ فقد اتخذ إخصائين من الأوربيين في نواحي الحياة المختلفة وكان الشعب أكثر إقبالا على الاستفادة منهم ، لأن الغرب ، وخصوصاً الفرنسيين ، لم يكونوا حينئذ حكاماً مكروهين كما كانوا في أيام حملتهم ، بل كانوا موظفين مجلوبين لحكومة مصرية وشعب مصرى ، فاستعان بهم محمد على في تنظيم الجيش ، وفي إنشاء المدارس ، وفي أساليب الحكم إلى غير ذلك من نواحي الحياة . وقد كانت مهمة محمد على أولاً تقوية الجيش وتنظيمه ولكن هذا الجيش تطلب مطالب في نواحي الحياة الأخرى ، فلا بد للجيش مثلاً من أطباء فافتتح مدرسة الطب وأشرف عليها علماء من الفرنسيين ، غير أن هذا التعليم الطبى باللغة الأجنبية استلزم معرفتين يعرفون للطلبة ما لا يفهمونه من الأساتذة الفرنسيين فكان بدء حركة الترجمة وبدء وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية .

ووجد محمد على أن نقل الأساتذة من فرنسا وغيرها إلى مصر لا يفي الغناء المطلوب ، فبدأ يبعث البعث من المصريين إلى أوروبا .

وأول ما كان ذلك في سنة (١٨١٣) ، ثم ظلَّ يوالى البعث بعد ذلك حتى سنة (١٨٢٦) حيث كان عدد البعثات أكثر من أربعين طالباً — هؤلاء الطلبة رأوا أوربا على حقيقتها ، ولم يقتصروا في تزودهم على العلوم والفنون والآداب ، بل أضافوا إلى ذلك ما قد يكون أبعد أثراً وهو دراستهم للحياة الاجتماعية فيها ، وتأثرهم بها ، فعرفوا أساليب معيشة القوم ، وأدركوا أسباب نهوضهم ، ورأوا ما يستمتعون به من حرية ، وكيف يتعلم النساء والرجال منهم على السواء ، وكيف يرقون بالشعوب في الحياة المادية والاعتقادية ، إلى غير ذلك مما رأوا وعرفوا فلما عادوا إلى مصر عادوا يحملون مشاعل من نور .

وتجلى ذلك في إقبالهم على الترجمة والتأليف والدعوة إلى الإصلاح وإن كانت دعوة هادئة ليئة ، وفي كثير من الأحيان مستترة ، كالذي نقرؤه في ثمايا مؤلفات رفاة الطهطاوى من تحبيذ تعليم النساء ، وإنشاء المدارس لهنَّ ، والعناية بثقافة الشعوب وصحتها ، ورفع مستواها الاجتماعي .

كلّ هذا رفع من مستوى الثقافة وكلّ هذا كان له أثره في الأدب بوجه خاص لأنّ الأدب معان وأساليب . . . فإذا تنقّف نخبة من شبان الشعب ، وملأوا نفوسهم بالمعاني والأفكار والآراء ، وقطّروها إلى الشعب بأى وسيلة كانت : إمّا بالتأليف أو الترجمة أو الخطب ، أو المحادثة أو السمر ، كان ذلك كله نواة لهضة أدبية يُرجى خيرها بعد قليل .

واستتبع حركة استجلاب الأساتذة الأوربيين على اختلاف أنواعهم إلى مصر ، وإفناد البعث المصرية إلى أوربا ثم عودتهم منها ، حركة قوية في التأليف والترجمة فقد رأينا أثر ذلك واضحاً في كثرة ما تُرجم وما أُلف ، وبدأ ذلك بالطب لما كان من حاجة الجيش للطبِّ ، ثم توالى الترجمات والتأليف في الفنون الأخرى .

وكانت حركة التأليف والترجمة في مستهل حياتها محوطة بمصاعب كبيرة ، من ذلك الشور على المصطلحات العربية تقابل المصطلحات الغربية وتحسين التعبير عنها ، وقد بذلوا في ذلك جهداً مشكوراً بالرجوع إلى الكتب القديمة ككتب ابن سينا وغيره في الطبِّ ، يستخرجون مصطلحاتها ، وكتب الفقه القديمة يستخرجون تعبيراتها الفقهية . . . هذا إلى صعوبة في

تطويع الأسلوب العربي السائد إذ ذاك إلى أسلوب مُيسر سهل خالٍ من السجع وغيره ليتفق وما يتطلبه العلم من أسلوب صاف واضح .

والذى يقرأ هذه الكتب يحسُّ هذه الصعوبة ، ويلبس هذا الجهد الذى لقيه المؤمنون والمترجمون ، وما صادفوا من تعثر أحيانا وتقلُّب على الصعاب أحيانا أخرى ، ولكن هذه المحركة كانت على كل هذا ، بدءاً لتتبع من الثقافة جديد يمدُّ بحقِّ دعامة النهضة ، ويوشك أن يكون له أثره فى الثمرة المرتقبة .

وهذا الاحتكاك سواء من طريق استيفاد الأساتذة الأوربيين إلى مصر أو من طريق بعث البعث المصرية إلى أوروبا كان له أثره الخطير الذى ظل يعمل عمله فى حياة الشرق إلى الآن ، فقد كان هؤلاء وهؤلاء نقلة للمدنية الغربية فى منهج بحثها وتعاليمها وطريقة حياتها وأسس حضارتها .

عُرِضَ ذلك على المصريين عرضاً قويا وبخاصة الخاصة منهم فالأساتذة الأوربيون يدرسون على مناهجهم الذى تعلموه فى أوروبا ويعيشون فى مصر العيشة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها فى أوروبا وينقلون نظم الإدارة والتعليم والصناعة التى شهدوها فى بلادهم ويتحدثون الأحاديث المختلفة عن الحضارة الأوربية وكذلك يفعل أعضاء البعث من المصريين الذين سافروا ودرسوا ثم رجعوا . وأثر هؤلاء أقوى لأنهم من صميم البلاد وأقدر على عرض ما شاهدوا وتأثروا .

كل هذا جعل فى جو مصر نوعاً جديداً من الحياة ومن التفكير لم يكن معروفاً ، وبجانب ذلك كان هناك طبقة أخرى من متقى الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى يحيون حياة قديمة وعلى أعظمهم القديم وعلى تفكيرهم المألوف ولما يصل إليهم شيء من الثقافة الغربية ، فكان هناك احتكاك آخر من جنس آخر هو احتكاك بين العقلية القديمة والعقلية الحديثة والعلم القديم والعلم الحديث والأدب القديم والأدب الحديث والفنون والصناعات القديمة والفنون والصناعات الحديثة ، وبعبارة أخرى كان هناك احتكاك فى الأمة الواحدة بين طائفتين ومدنيتين وعقليتين كالاحتكاك الذى وصفناه بين الشرق والغرب . وأثر ذلك فيما

نحن بصدده الآن من وجود أساس لمدينتين وعقليتين ظلنا تعملان جنباً إلى جنب وتؤثر كل منهما في الأخرى أترأ يضعف ويقوى بالأحداث إلى يومنا هذا .

ثم حدث احتكاك من نوع آخر، فقد كان الاحتكاك السابق سلمياً هادئاً أيام محمد علي ومن بعده ، يستعين فيه الشرق بالغرب متى شاء وكيف شاء ، وكانت الاستفادة بالتعلم والتعليم والترجمة والافتباس والنقليد — ولكن جاء بعد ذلك فتح قناة السويس والتنازع عليها والاستفادة منها واختلاف أطماع الدول في استغلالها وتسابق الإنكليز والفرنسيين إلى بسط نفوذها عليها وأعقب ذلك تدخلهم في شؤون البلاد ، فكان من هذا بدء شعور المصريين بالخوف من سوء المصير وغلجان البلاد ، ودعوة القادة إلى الحذر واليقظة حتى لا تقع البلاد فريسة في يد الأجانب .

وكان على رأس هذه الدعوة السيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه — ثم كان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن وقعت الواقعة باحتلال الإنكليز لمصر فكان احتكاكاً من نوع آخر : بسطوا سلطانهم ووجهوا أساليب التعليم ومناهجه والحياة الاقتصادية والسياسية وفقاً لمصالحهم .

وقد كان ذلك احتكاكاً مكروهاً ، على عكس الاحتكاك الأول ، ومع هذا فقد أثر في استمرار نقل المدينة الفريرية إلى مصر وتعليم كثير من أبناء البلاد اللغة الإنكليزية يظلمون بها على العلوم والآداب والفنون الإنكليزية وإرسال بعثات إلى اسكترا للدراسة فيها .

ونشأ عن ذلك كراهة المصريين للحكم الأجنبي وشعورهم بعزتهم التي امتنعت وقوتهم التي ضاعت ، وفقدان كرامتهم بفقدان استقلالهم وإطلاع كثير من تنقفوا الثقافة الأجنبية حتى الإنجمازية على ما بذل الأوربيون في المحافظة على استقلالهم وشعورهم بوطنيتهم ، فأوحى إليهم ذلك أن يحاربوا الاحتلال ، ويطالبوا الاستقلال ، ويسلكوا في ذلك السبل التي سلكها الأوربيون أنفسهم فنشأ في البلاد نوع من الأدب السياسي تجلّى في الصحف وفي الشعر وفي الخطابة مثله أولاً جمال الدين الأفغاني ثم عبد الله نديم ثم مصطفى كامل — وشعر به أولاً البارودي ثم صبري وشوقي وحافظ .

وهكذا كان للاحتكاك بنوعيه أثر بليغ واضح في الأدب على اختلاف أشكاله..
وكان من أثر هذا الاحتكاك .

(١) الطباعة والصحافة .

أما الطباعة فمع أنها اخترعت في القرن الخامس عشر الميلادي وعرفت الأستانة في منتصف القرن السادس عشر ، فإن مصر لم تعرفها إلا على يد الحملة الفرنسية ولم تستفد منها فائدة تذكر إلا سنة ١٨٢١ حيث أنشأ محمد علي المطبعة الأهلية التي عرفت باسم مطبعة بولاق ثم تتابع إنشاء المطابع .

وكان للطباعة أثر كبير في نشر الثقافة ، فقد اعتاد الناس قبلها أن ينسخوا الكتب بأيديهم وهذا يجعلها نادرة ويحجم الانتفاع بها محصورا في دائرة ضيقة ولا يستطيع اقتناءها إلا المومنون ، فكان طلبة العلم ينسخون الكتب بأيديهم أو يستعيرونها من المكتاب على صعوبة في ذلك فلما انشئت الطباعة وتقدمت كثير عدد ما يطبع ورخص ثمنه وأصبح في متناول عدد كبير من الناس .

وقد بدأت المطابع تطبع الكتب التي تستخدم الجيش والإدارة الحكومية ثم توسعت فطبعت الكتب الدينية والأدبية والتاريخية وغيرها مما زاد في نشر الثقافة ، وكان لذلك أثره في الحركة الأدبية .

وكان لنأسيس الطباعة وتقدمها فضل في الصحافة وتقدمها وقد أنشئت الصحافة في مصر في عهد محمد علي أيضا بإنشاء الوقائع المصرية وكانت جريدة رسمية تنشر الأخبار الحكومية ، ثم كان لها قسم أدبي لنشر المقالات الأدبية والاجتماعية. ثم تقدمت الصحافة وكثرت الصحف ونالت حقوقها من الحرية على مر الزمان تنشر فيها آراء المفكرين والسياسيين وتنصر الأحزاب الخلمة والنزعات الخلمة وتحمل الأخبار بجانب المقالات السياسية والمقالات الأدبية فكانت بذلك مصدرا من أكبر المصادر لنشر الأفكار السياسية والاجتماعية والأدبية بين طبقات الشعوب وكانت عاملا من عوامل النهضة الفكرية كما كانت سببا قويا في رقي الفكر العربي وتحريره مما كان يتأثر فيه من سجع وأنواع بديع ونحو ذلك إذ كانت الصحافة تتطلب أسلوبا سريعا سهلا حارا متدفقا .

وبجانب الصحافة كانت المجلات وكان أول ما أنشئ في مصر مجلة « اليأسوب » وهي مجلة طبية أنشأها محمد علي البقلى سنة ١٨٦٥ ثم تتابعت المجلات الأدبية كمجلة « روضة المدارس » التي أنشئت لطلبة المدارس سنة ١٨٧٠ وكان يحرر فيها كثير من رجال العلم والأدب ، كرفاعة بك وعلى مبارك باشا والشيخ حسين المرصفي وعبد الله باشا فكرى وغيرهم كما كانت تنشر في آخر كل عدد صفحات من كتاب قيم .

وكانت من أهم المجلات الأدبية التي صدرت مجلة نزعة الأفكار التي أصدرها إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال سنة ١٨٦٩ ، وكان طابعها الظاهر عليها الطابع الأدبى البحت . وهكذا تعاونت المجلات والجرائد على تغذية الشعب بالأفكار والآراء العلمية والأدبية ، وكانت كلها مدارس يتزعمها شيوخ الأدب والعلم في مصر ويتلمذ فيها الناشئون الناشدون للأدب .

(٢) وتبع إنشاء المطابع وتنبه الأفكار والرغبة في الازدياد في العلم أن اتجه جمع من المثقفين نحو إحياء الكتب العربية القديمة في مختلف العلوم والفنون ونهض بأعباء ذلك جماعة في الشرق وجماعة في الغرب . ففي الشرق نشرت المطابع المصرية كثيراً من الكتب للقديمة العربية القيمة من لغوية وأدبية وتاريخية وفلسفية أمثال القاموس المحيط وتاريخ ابن خلدون والمقد الفريد وكثيراً من دواوين الشعراء وغيرها وكانت هذه الكتب مجهولة عند أكثر الناس لا يعرفها إلا الخاصة .

وفي الغرب جد المستشرقون في نشر كثير من الكتب القيمة فنشطت حركة الاستشراق ، وهي حركة قديمة بدأت في القرن العاشر الميلادى وتقدمت على مر العصور وبلغت ذروتها في القرن التاسع عشر .

وكان من أهم ما قام به المستشرقون طبع الكتب العربية القديمة طبعاً فنياً ، فهم يجمعون نسخ الكتاب الذي يراد طبعه من مكاتب العالم ويقابلون بعضها ببعض ويختارون أصحابها ويشيرون إلى ما اختلف من نصوصها ويضبطون أعلامها ويضعون الفهارس لها وكثيراً ما يعلقون عليها أو يقدمون لها مقدمات قيمة في تحليلها وإن كان أكثر هذه المقدمات بلغة أجنبية .

ولعل أهم من يمثل هذا الجهد في القرن التاسع عشر البارون سلفستردى ساسى الفرنسى المتوفى سنة ١٨٣٨ فقد بذل جهدا كبيرا في هذا الباب إذ نشر كتاب كباة ودمنه وأنية ابن مالك ومقامات الحريرى ووضع شرحا على هذه المقامات لا يزال متداولاً في أيدي الناس إلى اليوم ، وكان نشره لها أول نشر ، وألف كتاب الأنيس المفيد للطلاب المستفيد جمع فيه كثيرا من المنتخبات في الأدب العربى والتاريخ ، وكوّن مدرسة سارت على منهجه ونشرت الكتب القيمة أمثال كترميز الفرنسى المتوفى سنة ١٨٥٧ وهو الذى نشر لأول مرة مقدمة ابن خلدون ومن تلاميذه فرايتاج الألمانى المتوفى سنة ١٨٦٦ وهو الذى نشر لأول مرة أيضا كتاب الحماسة لأبى تمام مع شرح التبريزى عليه كما نشر أمثـل الميدانى وفاكهة الخلفاء ورحلة البغدادى ، إلى كثير غيرهم من المستشرقين نشروا من الكتب الشىء الكثير .

وقد وصلت هذه الكتب إلى الشرق وانتفع أهلها بها وأعادوا طبعها ونشرها واستفادوا منها .

كل هذا — سواء ما نشر منه في الشرق أو ما نشره المستشرقون في الغرب — كان له أثر بعيد المدى في النهضة الأدبية ، فقد وجد فيه المتأدبون ينبوعا لا ينضب يستمدون منه أديهم ويقلدونه في أسلوبهم ، ويتكثرون منه في علمهم وثقاتهم .

وكانت كل هذه الآثار محجوبة عن القراء إلا العدد النليل النادر ، وكانت كل هذه الكتب طرفا من أعز الطرف تحفظ في خزائن الملوك أو في المساجد فأصبحت بفضل المطابع وجد العلماء في النشر سهلة المنال كثيرة الانتشار بعيدة الأثر

ثم كان لهذا الاحتكاك أثر في إنشاء المدارس على نمط حديث تُقلد فيه المدارس الأوربية في مناهج التعليم ومواد الدراسة — وقد كان التعليم في مصر قبل محمد على محدوداً في الأزهر ، في القاهرة ، والكتاتيب المنبثة فيما حول القاهرة من المدن والأرياف .

فلما جاء محمد على شعر بحاجته إلى إنشاء جيش منظم على الأساليب العسكرية الحديثة وهو نفس الشعور الذى شعرت به تركيا قبل ذلك قبيل القرن الثامن عشر ، ووضعت له خططاً غرضها التنظيم ثم عاقها عن إتقانها قسوة الانكشارية ومعاكستها للتجديد . ولكن

محمد على تمكن من السير في هذه السبيل وجرى خلفاؤه على الاستمرار فيها . واستتبع تنظيم الجيش تنظيم ما يلزمه من فنون أخرى من طب وهندسة وغير ذلك .

وعلى كل حال فقد نتج عن هذه تأسيس مدارس مدنية انقسمت إلى ثلاثة أنواع : ابتدائية وتجهيزية وخاصة . وكان من المدارس الخاصة مدرسة الطب والهندسة والطب البيطري والفنون والصناعات والزراعة والألسن ، وكان لهذه الأخيرة مدرسة الألسن فضل كبير في نشر الثقافة الغربية في الفنون المختلفة بما كان من جهد رفاعة بك الطحطاوي وتلاميذه . وكان عدد المدارس الابتدائية المؤسسة على النمط الحديث نحو خمسين مدرسة ولما كثرت التعليم المدني وجد محمد على الحاجة ماسة إلى إنشاء (ديوان المدارس) يقوم بما تقوم به اليوم وزارة المعارف وقد أنشئ سنة ١٨٣٩ .

واستمر هذا النظام يسير في عصور من بعده مع ما عاناه من الضعف والقلة في عهد عباس الأول وسعيد ، حتى جاء اسماعيل فأعاد المدارس على اختلاف طبقاتها وزاد عليها في فنون التعليم المختلفة وأنشأ مدرسة الإدارة التي سميت بعد (مدرسة الحقوق) ومدرسة للمعلمين ومدرسة للفنون والصناعات سميت بعد (مدرسة الصنائع) .

وقد كان أمام أولى الرأى في الأمة طريقتان : أن يُحوّلوا المدارس القائمة كالأزهر ونحوه إلى مدارس تصطبغ بالصبغة المدنية وأن يأخذوها بذلك ، غير أنهم كما يظهر آثروا إرضاء الرأى العام ببقاء هذه المعاهد على نمطها الخاص من غير تغيير ، وآثروا الطريقة الأخرى وهي إنشاء المدارس المدنية بجانب المعاهد الدينية مع أنهم في أول الأمر اختاروا كثيراً من أعضاء البعثات من الأزهر ، تأمنا بنوون الطريقة الأولى ، ولكنهم حين عادوا درسوا في المدارس المدنية لا في المعاهد الدينية .

وننتج عن ذلك أن كان في البلاد نمطان من الثقافة : نمط أزهرى يسير عليه الأزهر وتحتذيه المساجد الكبيرة في المدن ، وتأخذ به المساجد الكبرى في الشرق ، وفي هذه كلها كانت تُدرس العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث وشيء قليل من الحساب للوارث ، ومن الهيئة لمواقيت الصلاة ، في كتب من نتاج المتأخرين ويُنفي فيها بتهمم العبارات وإثارة الاعتراضات ، وكثرة المناقشات ، أكثر مما يُعنى فيها بروح المفكرة ، وجوهر الموضوع ، ..

وحتى كتب البلاغة التي كانت تُدرس لم تكن تُعَلِّم البلاغة لأنها لم تكن جيدة التعبير ، ولا قوية الأسلوب ، ولا تساعد على إخراج البليغ ، بل تخرج رجلاً فاهماً لبعض العبارات مجادلاً فيها .

على أن من الحق أن نقول إن هذا النمط يُعَلِّم الصبر على القراءة والإيمان في الفهم ، والتدقيق في التعبير ، كما أنه رمز أو منيع للحياة الروحية التي لا بد منها بجانب الحياة المادية . أما النمط المدني فكان يجري وراء النمط الغربي : تُخْتار فيه أقرب الأساليب لتتعلَّم ، ويُعنى فيه بالموضوع أكثر مما يُعنى باللفظ ، ويستمدّ معارفه ومناهجه من الغرب فيما وصل إليه .

وقد نشأ عن هذا الاختلاف اختلاف في عقلية المتعلمين واختلاف في طرق التفكير وتحصيل المعرفة وتمثلها ، باعد بين الطائفتين وكوّن منهما وحدتين في الأمة ، على حين أن الغرب في نهضته وحدّ في أساليب البحث والتعليم حتى في المعاهد الدينية ، إذ كانت نهضته من نفسه ونهضتنا مجلوبة من غيرنا .

ولمّا كانت المدارس المدنية مضطرة إلى تعليم اللغة العربية والثقافة العربية بجانب العلوم المدنية والثقافة الغربية اضطر المصلحون أن يعالجوا مشكلة تعليم الثقافة العربية كي تسير المدرسة الواحدة على نمط واحد أو متقارب . وقد ظهرت هذه المحاولة في عمل علي باشا مبارك ومن حوله كعبد الله باشا فكرى والشيخ حسين المرصني وأمثالهما ، فألف علي باشا مبارك كتباً لتعليم القراءة والكتابة على نمط حديث ، وألف عبد الله باشا فكرى كتاباً في المطالعة ، وألف الشيخ حسين المرصني كتاباً في العلوم العربية وآدابها ، وألف غيرهم كتباً في تقريب النحو ، كما أنشأ علي باشا مبارك في عهد اسماعيل مدرسة دار العلوم لتكون أداة الصلة بين النمطين يتخرج فيها معلم اللغة العربية والثقافة العربية في المدارس المدنية .

وهذا أيضاً كان له أثر أدبي . فقد نشأ أدياء يتثقفون الثقافة الغربية وشيئاً من الثقافة العربية ويستمدون أكثر وحيهم وأفكارهم وخواطرهم مما تمليه الثقافة الغربية والأدب الغربي وبجانبهم مثقفون لم يطلعوا إلا على الثقافة العربية يستمدون منها كذلك وحيهم

وخواطرهم وأفكارهم ، مما جعل في الأمة مدرستين مختلفتين في إنتاج الأدب العربي لا تزال
أعلامهما واضحة إلى اليوم وإن تقاربتا بعض الشيء على مرّ الزمن .

ولا بد من الإشارة إلى ما كان لهذه النهضة من إنشاء دار الكتب المصرية في عهد
اسماعيل ؛ فقد كانت الكتب القيمة مبعثرة في المساجد والمكتبات الخاصة عرضة للسرقة
والتلغف والإهمال حتى تسرب منها كثير إلى خارج البلاد ، وبيع كثير منها بأبخس الأثمان
للبقالين والفرانين ، فأنقذ على باشا مبارك هذا الموقف بإنشاء هذه المكتبة العامة سنة ١٨٧٠
وجمع فيها كل الكتب التي عثر عليها في المساجد وغيرها ، وأضاف إليها مجموعة مما طُبع في
مطبعة بولاق ، كما أضيف إليها كثير من كتب حسن باشا المنسترلي ، وسمّيت دارالكتب هذه
في أول عهدها المكتبخانة الخديوية ، وفتحت أبوابها لمن أراد أن ينهل من العلم ؛ فكانت مدرسة
قيمة بجانب المدارس الأخرى ومصدراً من مصادر الثقافة وخاصة الثقافة العربية ، وأصبح
من اليسور على كل راغب في المطالعة والدرس أن يجد طلبته في هذه الدار .

هكذا كانت الحال في مصر ، أما سوريا ولبنان فقد كان لهما شأن آخر ؛ إذ كانتا أكثر
تبعية للدولة العثمانية وظلتا خاضعتين لها ولأظمتها بعد استقلال مصر نوعاً من الاستقلال ، وإن
كان لبنان يتمتع ببعض الميزات لوضعه الخاص وتاريخه الخاص .

وكانت الدولة العثمانية لا تهتم كثيراً بالثقافة ونشرها في غير عاصمتها ومع هذا فقد كانت
سورية أسبق من مصر في استخدام الطباعة تبعاً لسبق الدولة العثمانية في هذا الباب ؛ فقد
صُنعت الحروف العربية في حلب في أوائل القرن الثامن عشر — ووجد في سورية ولبنان
عامل خاص كان سبباً في نهضتهما العلمية ، ذلك هو وجود العنصر المسيحي فيهما بكثرة ؛ إذ
حمل كثيراً من دول أوروبا وأمريكا على إرسال بعوث علمية لتبشير والتعليم فأنشأت هذه
البعوث المدارس ، وكوّنت رجال التعليم ، وافتتحت المكتبات ، وأدارت المطابع ، ولم
تكتف بالتعليم الديني الذي هو غرضها الأول ؛ بل علمت ، بجانبه ، العلوم الحديثة من طب
وطبيعة وكيمياء ورياضة ، فأقبل الطلبة عليها من مسيحيين ومسلمين ، فلما تخرج من هذه

المدارس متخزّجوها أخذوا هم ينشئون المدارس فى القرى والمدن ينشرون الثقافة بين أبناء البلاد .

وشجعت حركة التعليم هذه على إيفاد بعوث إلى أوروبا للتثقف فيها كالبعث التى أرسلها محمد على .

وكما تزوّد المثقفون من العلوم الغربية التفتوا إلى دراسة اللغة العربية وأدبها سواء فى المدارس أو فى المطالعة الخاصة ، وخير من قام بالجمع بين الثقافتين المدرّسون فى المدارس الذين اضطروا إلى تعليم المواد الحديثة باللغة العربية فشعروا بحاجتهم الشديدة إلى دراسة اللغة العربية وآدابها .

وربما كان من الفروق الواضحة ، بين مصر من نحو ، وسوريا ولبنان من نحو آخر ، أن الثقافة فى مصر بدأت قوية فى الناحية العلمية ثم اتجهت بعدُ إلى الناحية الأدبية ، على حين أن الثقافة فى سورية ولبنان اتجهت إلى الناحية الأدبية ثم إلى الناحية العلمية . كما كان من الفروق الواضحة أن النهضة المصرية كانت أول ما بدأت ، ثم استمرت ، على يد الحكومة ، على حين أن الثقافة فى سورية ولبنان كانت على يد البعث الأوربية وقادة الثقافة من أهل البلاد .

وكانت أسس النهضة فى سورية ولبنان هى بعينها أسس النهضة فى مصر من مدارس وطباعة وصحافة وبعوث ، وإحياء الكتب العربية القديمة .

وعاصر الأمير بشير الشهابى الكبير محمد على وكان مركزه فى بيت الدين فى لبنان مركزاً لحركة أدبية لها أثرها . فقد قرّب الشعراء والكتاب وأجال فى مجالسه المناظرات ومنحهم المنح فتفتحت أذهانهم وتدقت أقلامهم ، وكان من رجاله الأدباء الشيخ ناصيف اليازجى ، وبطرس كرامه ، ونقولا الترك .

وكثير من هؤلاء المثقفين فى سورية ولبنان ضاقوا ذرعا بالاستبداد وخنق الحرية التى كانوا يشعرون بها فى بلادهم فرحلوا إلى مصر وساهموا فى نهضتها وخاصة النهضة الصحفية .

أما العراق فكان لسوء الحظ أقل نهضة وأطول ركوداً ، إذ لم يجد من الاستقلال عن الدولة العثمانية ما وجدت مصر عند محمد على وذريته ، ولم يكن له الوفرة الكثيرة فى

سكانه من النصارى مثل ما للشام ولبنان ، حتى يتجه إليه المبشرون ، وكانت الدولة العثمانية تعدّه مَنفَى للمغضوب عليهم . ومن تثقف من أبنائه فتقافة عسكرية في الاستانة . لذلك كله تأخرت نهضته إلى عهد فيصل ؛ فالحركة العلمية والأدبية فيه كانت مقصورة على النمط القديم تُدرّس في معاهده الشيعية والسنيّة من دين ولفة وأدب وفلسفة ، والنابغ منهم مصبوغ بهذه الصبغة ، كأسرة الألويسين التي نبغ منها عدد من العلماء شاركو في مختلف أنواع الثقافة العربية على النمط القديم ، وأبرزهم في ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر الشهاب الألومى (١٢١٧ — ١٢٧٠) (١٨٠٢ — ١٨٥٤) فقد كان له مقام كبير في التفسير والإفتاء ، وله كتاب التفسير المشهور ، وكتاب كشف الطرّة شرح فيه درّة الغواص للحريرى ، وله مقامات وشعر قليل . وخلفه ابنه في النصف الثانى من هذا القرن (١٨٥٧ — ١٩٢٤) ومن أشهر تأليفه بلوغ الأرب في أحوال العرب ، وقد قدّمه إلى مؤتمر المستشرقين في استكهولم ، وله كتاب أخبار بغداد وتراجم بعض علمائها في القرن الثالث عشر ، وكتاب أمثال العوام في مدينة السلام .

وعلى الجملة فلم يساير العراق الشام ومصر في العلوم الحديثة والنهضة المدنية وإن سايرهما بعض الشيء في الإنتاج الأدبى في مواد الثقافة العربية .

فنون الأدب

(١) الشعر :

كان الشعر قبل النهضة الحديثة ، وفي أوائلها ، بادي الضعف ، شديد الهزال ؛ وربما كان ضعفه وهزاله أظهر من ضعف النثر وهزاله لأن الشعر فن جميل يعتمد على الجمال أكثر مما يعتمد على الحقائق ، فإما أن يكون جميلاً وإما أن يكون عدمه خيراً من وجوده ؛ أما النثر فقد يكون وسطاً ويكون مع ذلك مقبولاً .

وقد كان الشعر في أول هذه الفترة التي نورتها مجرى على سنن الأقدمين من حصر نفسه في الغزل والمدح والمجاء وشيء من الوصف ، ولكنه يختلف عن شعر الأقدمين في أنه حَفِظَ الشكل وقَدَّ الروح .

وربما مثل هذا الدور السيد اسماعيل الخشاب (المتوفى ١٨١٥) والشيخ حسن المطار (المتوفى ١٨٣٤) والسيد على الدرويش (المتوفى ١٨٥٣) في مصر . ونقولا الترك (المتوفى ١٨٢٨) وبطرس كرامة (المتوفى ١٨٥١) في لبنان . والشيخ أمين الجندی (المتوفى ١٨٤١) في سورية .

فهؤلاء الشعراء كانوا ، في الأغلب ، شعراء الأسماء يهذونهم بالأعياد ، أو يؤرخون حادثة من أحداثهم ، كبناء قصر ، أو ولادة مولود ، أو موت عزيز عليهم ، أو نحو ذلك . وقد يشعرون لأنفسهم أو لأصدقائهم وهو ما يسمى بالإخوانيات ؛ وشعرهم في هذا ، كذلك ، مصنوع لا مطبوع .

فقد يكون شيخاً من شيوخ الدين لم يقع قط في أمر عشق ثم يتغزل لا يقصد من عزله إلا أن يُحاكى ضرباً من ضروب الشعر الذي جرى عليه القدماء ، حتى لقد يتغزل في غلام ، أو يصف الحجر ، وهو آمن ، لأن الناس قد ثبت في أذهانهم أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون . وقد ظلَّ الشعر على هذا الحال حتى في أول عصر النهضة ، لأن النهضة في أول أمرها لم تكن نهضة شعرية وإنما كانت نهضة علمية وثقافية ، واحتاج الشعر إلى زمن حتى يتأثر بها أو يدركها .

ولنضرب لذلك أمثلة . . فيقول الخشاب متفرلاً :

ياشقيق البدر نوراً وسنا وأخا العنصن إذا ما انعطفا
بأبي منك جبيننا مشرقاً لو بدا للنيرين انكسفا
بغيتي منك رُضاب ورضاً وعلى الدنيا ومن فيها العفا

ويقول العطار :

أفلا رثيتَ لعاشقٍ لمبتً به أيدى المنون ونازعته خطوبه
أنت النعيم له ، ومن عجب تمدَّ به وتمرضه وأنت طبيبه

ويقول السيد على الدرويش يمدح محمد على باشا ويؤرخ مجيء الجراد وموت البقر :

يا صاح ما هذا الخبر قالوا الجراد هنا ظهر
قلتُ الجراد فقال إى تدرى الجراد إذا ابتدر؟
قلتُ استعد بالله قا ل وهل من المقضى مفر
ما كان قط بخاطرٍ في خاطرى هذا الخبر

جاء الجراد كاه يتلو على البقر السور
أو أن أرواح البها ثم ألبست تلك الصور

فترى الجراد على الجر يد مكللاً مثل الثمر
رُقشٌ تراها إنها نار تلتظت بالشجر
لواحة للأرض لا تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة في حجمها لكنها إحدى الكُبر
الأرض كانت جنّة فالآن تُرمى بالشرر

دقوا الطبول لرقصه في الزرع لما أن زمر

وغزوا على ذا المعتدى فضى هزيمًا وانكسر
وكذا الخديوى عادة لم يفزُ إلا وانتصر

هل للخديوى مشبه فى همة أوفى سِير
هل قبله ردَّ الجرا دَ سواه فيما قد غَبَر

ويختمها مؤرخاً بقوله :

أرخته وصل الجرا د لمصر فى عام البقر

١٢٥٩

ويقول الشيخ شهاب فى قصيدة تكتب على جامع القلعة :

فدع قصر غمدان وأهرام هرمس وإيوان كسرى إن أردت لتهدى
ودع إرمًا ذات العباد ونحوها وعرشا لبليس كصرح عمرد
ودع أموى الشام وانزل بمصرنا وبادر إلى هذا بإيماء مرشد
قلو عُدَّت فى الكون بدء بدائع لكان به ختم لذلك التعدد
كأن الليالى الوالدات عجائباً أصبن بمقم بعد هذا التجدد

ويقول بطرس كرامة يصف ينبوع الصفا وإجراء مائه إلى بيت الدين على عهد الأمير

بشير الشهابى :

صاح قد وافى الصفا يروى الظما بشراب كثرى ألس
وأفاض الشهد فى روض الحما لجلا النم وبراء الأفس

ويقول فى وصف باقة زهر أهداها له الأمير بشير :

وباقة زهر من ملك مُنحتها معطرة الأرواح مثل ثنائه
فأبيضها يحكى جميل خصاله وأصفرها يحكى نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهد فضله وأحمرها يحكى دماء عدائه

ويقول الشيخ أمين الجندى يصف الربيع والربوة في دمشق :

يا حبذا الربوة من دمشق بالفضل حازت قصبات السبق
كم أطامت بها يدُ الربيع من كلّ معنى زائد بديع
وفككت أنامل النسيم أزرار زهر الرّند والشميم
وسقطت خواتم الأزهار من فنن الأعصان كالدرارى
والتف سيف البرق في أوراق مذ شام خيل الربح في سباق
ما بكت السماء بانغام إلا وصار الزهر في ابتسام

وهكذا كان أغلب الموضوعات التي يجرى فيها الشعر هي التاريخ لدار أو مسجد، أو التهنئة بمولود، أو الشكر على هدية، أو رثاء فقيد، أو قصيدة لصديق في عارض حدث والرد عليها من صديقه، أو تشطير أبيات أو تخميسها أو تسبيحها.

أما شعر القلب فقلما تعثر عليه، وأما شعر يعرض لوصف الحياة الاجتماعية أو بؤس الشعب، أو صرخة من ظلم، أو مناداة بعدل فغير موجود، لأن السلطات لم يكن صدرها يتسع لذلك، والشعراء أنفسهم ليس لهم من الثقافة العالية، ولا من المركز الاجتماعي، ما يؤهلهم لمشق الحرية أو التغنى بجمال الطبيعة أو نحو ذلك مما خاض فيه الشعر من بعد.

حتى إذا كانت النهضة، وتقدمنا بعض الشيء، بدأ المطلعون على الآداب الغربية يتأثرون بها، ويقتبسون منها، ومن أمثلة ذلك محمد عثمان جلال المولود سنة (١٨٢٩) فقد درس بعض اللغات الأوربية في مدرسة الألسن، وتدرج في الوظائف إلى أن كان قاضياً، وقد ترجم عن الفرنسية رواية بول وفرجينى، كما ترجم قصص لافوتتين شعراً بتصرف، ونشرها في كتاب اسمه (الميون اليواقظ في الأمثال والمواعظ)

وكان جلال شاعراً مطبوعاً خفيف الروح، وربما وضع من شعره عند من أرخوا الشعر ونهضته أنه كان سهل الأسلوب متدقته، لا يكتر من التأنق والتجمل، وكثيراً ما جنح إلى العامية يقول فيها شعره .

ومن أمثلة ما ترجمه في الميون اليواقظ قصة شجرة البلوط والسنديانة^٣:

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى

قال إلى سنبلة من فول ليتك في العلوّ تحكى طولى
ليتك لو غرست تحت رجلى وكنت فارقت الحمى من أجلى
وكنت في أمن من العواصف قالت له ما مسنى من تلف
إنى وإن كنت نحيف القامة وفي الهوى لا أملك استقامه
فإن ما عندى من اللدونه وقت الرياح يوجب المرونة
وأثنى تبيها على أمثالى وبالرياح قط لا أبالى
وبينا الاثنان فى تنازع إذ نفخت منافخ الزعازع
واغربت الآفاق والبطاح وجلجلت فى الشجر الرياح
وقد أصابت قامة البلوط وزلت به إلى الهبوط
وسنبل القول يميل تاره وينثى أخرى مع الاماره
ولم يصبه من أذى ولا ضرر وربما كان الهلاك فى الكبر

وقد تأثر الشعر بعوامل النهضة التى ذكرناها من قبل وإن تأخر تأثره عن تأثر النثر؛ فقد كانت الحاجة إلى النثر أقوى؛ فنشأ دواوين الشعراء الأقدمين مكن ناشئة الشعراء آنذاك من الاطلاع على شعر الفحول من متقدمى الشعراء بعد أن كانوا لا يطمعون إلا على شعراء زمانهم أو ما قرب من زمانهم، والاطلاع على شعر الفرنجة مكن بعضهم من الاقتباس منه والتأثر به؛ وتغير البيئة الاجتماعية نفسها، على أثر الاحتكاك بالأجانب، غير من الشعر، لأن كل أدب سواء كان شعراً أو نثراً أو قصة يتأثر بالبيئة إلى حد كبير.

ومع هذا كله فلم يكن تقدم الشعر طفرة وإنما كان تدرجاً؛ فقد تنقل من محافظين إلى مخضرمين إلى أحرار مجددين. . . فشلاً كان يغلب على الشعر العربى المديح ونحوه من الأغراض التقليدية، غير أن شأنه أخذ يضعف شيئاً فشيئاً بحلول الحياة الديمقراطية محل الحياة الأرستقراطية، وتقويم الشعوب أكثر من تقويم الأمراء، ولم يخلص منه دفعة واحدة فوجد شعراء مخضرمون يقولون فى المديح مثل ما يقول الأقدمون؛ وحتى فى المخضرمين نرى أثر ذلك فى التخفف من العلوّ، والانصراف عن المبالغة، وغلبة القصد والاعتدال.

كما قلت العناية بالمهجاء لأنّ المدنية ورقيتها ، ورقة الذوق تأنف من المهجاء الفاحش ، ولا تسمح إلا بالمهجاء بالإيماء .

واستمر الغزل محتفظاً بمركزه في الشعر الجديد كما كان في الشعر القديم لأنه ينبع من عاطفة ملازمة للإنسان في بداوته وحضارته واختلاف حالاته الاجتماعية ، فإن تغير في شيء فبيله إلى التعبير الصادق عن طبيعة الشاعر ودقته في تصوير عاطفته ؛ وقد كان أكثره مصنوعاً يصدر عن لا يعشق .

وكذلك ما كان من رُقَى الشعر في الطبيعة وجمالها ، فقد كان يفهم من هذا النوع أنه عبارة عن جهد الشاعر في أن يجد للمنظر تشبيهاً ، وكفى ، فبدأ يتحوّل إلى محاولة للشاعر أن يشرب المنظر الطبيعي ويرتوي به أو يحتضنه . ثم يبت ذلك كله مشاعر في شعره ، أو أن يفنى الشاعر في هذا المنظر الجميل ويصف فناءه .

ثم خلقت المدنية والظروف الاجتماعية الشعر السياسي والاجتماعي . نعم كان هناك شعر سياسي في المصور الأولى كالذي نراه في شعراء الزيريين والأمويين من أمثال عبد الله بن قيس الرقيات وجريير والفرزدق والأخطل ، ولكن كانت له صبغة خاصة لا تتصل بالشعوب وحرّياتها ، إنما يتجه إلى الانتصار للقادة ومن ييدم زمام الأمور ؛ فلما نشأت المدنية واحتك الشرق بالغرب وطمحت أوروبا في استعمار الأم الشرقية تيقظ الوعي القومي يدافع عن هذا الطمع ، حتى إذا كان الاحتلال وُجِدَت النزعة إلى الاستقلال ، فكان الشعراء يمثلون دورهم في هذا الباب ، وكان الشعر السياسي بهذا المعنى .

وكذلك كان الشأن في الشعر الاجتماعي ، فقد أخذ الشعراء يحسون آلام الشعوب وعظما وآفاتهما ، مثل قولهم في تحرير المرأة وتربية الأطفال ومضار القمار والاعتزاز باللغة العربية ونحو ذلك .

كما كان من أثر تقليد الشرق للغرب اتجاه الشعراء إلى الشعر التمثيلي تقليداً لما عند الأوربيين ، كما فعل الشيخ خليل اليازجي المتوفى ١٨٨٩ ، إذ ألف قصة المروءة والوفاء في نحو ألف بيت نظمها حول قصة حنظلة الطائي مع النعمان .

هذا من ناحية الموضوع ، أما من ناحية الأسلوب والأوزان والقوافي فقد كانت روح المحافظة أشد مما كانت في الموضوع ، فحفوظ على الأوزان والقوافي إلا في القليل النادر ، وأكثر ما يظهر الميل إلى الأوزان القصيرة ، ونشوء القصيدة التي لا تلتزم قافية واحدة بل تعدد قوافيها في المقطوعات المختلفة ، وقد حاول بعضهم تقليد الشعر الفرنجي بإنشاد الشعر المرسل ، ولكنها كانت حركة لم يكتب لها الانتشار .

ورق الأسلوب من ناحية جزائته وتأثره بشعر الفحول من القدماء ورغبة الشعراء عن الإفراط في أنواع البديع وميلهم إلى قربه من أذهان الناس بوضوحه وجماله البسيط .

* * *

وربما كان البناوردي أول ناهض بالشعر العربي ، وساعدته ظروفه الخاصة على هذا التضج الشعري ؛ فهو من عنصر أرستقراطي ينحدر من أصل شركسي وينتسب إلى المماليك ، وتربى تربية عسكرية ، فقد تعلم في المدرسة الحربية وخرج منها ضابطاً وترقى في رتب الجيش ورأس حملة في حرب تركيا مع الروس ، وفي ثورة كريت ، وتولى نظارة الأوقاف ثم رياسة النظارة قبيل الثورة العرابية . وله ثقافة تركية وفارسية اطلع فيها على آداب اللغتين ونظم فيهما ، ورأى الدنيا بأشكالها وألوانها ، فعاش عيشة الترف كما يعيش شبان الأغنياء في مصر ، وجلس مجالس اللهو والشراب وتعرض للغزل ، وأحب ولها ، واتصل بالوظائف الحكومية في عهد إسماعيل فكأنه ذلك من دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر ، ورحل إلى الآستانة وأوربا ورأى مدينتهما فاستفاد منها ، وشارك في الثورة العرابية واكتوى بنارها .

كلّ هذا صادف طبيعة شعرية تستغل كل ما يعرض لها من أحداث ، فجعل منه شاعراً ممتازاً .

وأهم ميزة له أنه صادق في شعره يمتدح عما رأى وسمع وأحسن .

وكلّ هذا يفتر ما غلب على شعره من إكثار من الفخر ، صدق الموحسبه ونسبه ومناصبه .

رزقه الله أوّل أمره بمريّين من الأدباء كالشيخ حسين المرصفي ، حببوا إليه شعر
الفحول الأقدمين ، فنشرب منه ومزجه بنفسه وحفظ منه الكثير ، واكتفى بأن تنطبع
الصبيغ والأساليب ووجوه الإعراب والقوافي والأوزان في نفسه من غير تعلّم للنحو والقواعد
والعروض والمصطلحات ... ثم بدأ يحاكي بعضها ويعارضها ، فخرجت محاكاه ومعارضاته
قوية حسنة السبك ، متينة الأسلوب ، لا تقل شأنًا عن القصائد التي يعارضها .

عارض أبا نوح في قصيدته :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يُرَجَى لديك عسير
بقصيدته : أبي الشوق إلا أن يحنّ ضمير
والشريف الرضي في قصيدته :

ولولا العلي ما كنت في الحب أرغب
بقصيدته : سوى بتحنان الأغاريد يطرب
وغيري باللذات يلهو ويلعب
وأبا فراس في قصيدته :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر فما للهوى نهى عليك ولا أمر
بقصيدته : طربت وعادتنى الخيلة والسكر
وأصبحت لا يتلوى بشيمتى الزجر

ثم شعر لنفسه فيما يشعر به من فخر بالآباء ، وفخر بنفسه ، واعتزاز بقوته . ووصف معامع
الحروب كما رآها ، والحياة الاجتماعية كما أحاطت به ، والأعيب السياسة كما اكتوى
بنارها ... ولما نُقِيَ إلى جزيرة سرنديب وصف حينه إلى وطنه ، وما كان يعتوره من
شعور بألم الغربة وشعور بالرجولة التي يجب أن تتحمل الآلام في شجاعة ، إلى غير ذلك مما
كان فيه صادق الوصف ، مرهف الحس ، جزل اللفظ ، قوي الأسلوب .

وقد مات بعد أن رجع من منفاه سنة ١٩٠٤ .

وتظهر ميزات البارودي إذا نحن قسناه بشعراء عصره أمثال محمود صفوت الساعاتي
(المتوفى سنة ١٨٨٠) فقد كان أكثر شعره في مدح أشرف مكة والحجاز ، على حين أن
البارودي لم يمدح إلا قليلا ، وكان مديحه على هامش شعره لافي الصميم من شعره .
ثم كان صادقا في التعبير عن نفسه في أدوار حياته ، فإذا لها ، أو أحب ، وصف ما يشعر

به في لهوه وحبته ، وإذا حارب برع في وصف الجيوش والمعارك ، وإذا أحاطت به أحداث الثورة وصف مارأى ، وإذا نُقِيَ قال في طمأنينته وجزعه .

وهو في بعض الأحيان يعرض للشئون الاجتماعية ، مثل وصف اضطراب الحالة في مصر من تدخل الأجانب ، وفي لوم قومه على التراخي في رفع الظلم والعدوان عنهم ، وفي بؤس الشعب من ظلم حكامه .

ثم إن البارودي قد نقل بشعره المثل الأعلى من نظر في الشعراء في المصور المظلمة المتأخرة إلى نظر في الشعر العربي في أزهى عصوره العباسية ، فكان في كل ذلك مجدداً إلى درجة ما .

هذا إلى اختراعه أحيانا لبعض أوزان الشعر كقصيدته :

لوى جيده وانصرف ما ضره لو عطف
وقصيدته الأخرى : املاً القـدح واعص من نصح
وكلتاها مما نسج عليه شوق في قصيدته :

حفّ كأسها الحبيب فهي فضة ذهب
وقصيدته : مال واحتجب وادعى الطرب

وإن حاول بعضهم أن يخرج القصيدتين على الأوزان القديمة .

ومن أمثلة شعره في الفخر قصيدة طويلة منها :

سواي بتحنان الأغاريد يطرب
وما أنا بمن تأسر الخمر لبيته
ولكن أخوهم إذا ما ترجحت
نفي النوم عن عينيه نفس أبيّة
لها بين أطراف الأسننة مطلب
فكل الذي يلقاه فيها محجّب
فلا عترتي خال ولا ضمنى أب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها

خَلَقْتُ عِيوَا لَا أَرَى لِابْنِ حُرَّةٍ
فَلَسْتُ لِأَمْرِ لَمْ يَكُنْ مُتَوَقِّعًا
أَسِيرٌ عَلَى نَهْجِ يَرَى النَّاسَ غَيْرَهُ
وَإِنِّي إِذَا مَا الشُّكَّ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
صَدَعْتُ حِجْفًا طَرَّتْ بِهِ بِكَوَكَبٍ
عَلَى يَدَا أُغْضَى لَهَا حِينَ يَغْضِبُ
وَلَسْتُ عَلَى شَيْءٍ مَضَى أُنْتَقِبُ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِيهَا بِمَجَاوِلِ مَذْهَبٍ
وَأَمَسْتُ بِهِ الْأَحْلَامَ حَيْرَى تَشَعَّبُ
مِنَ الرَّأْيِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْمُنْتَقِبُ

ومن شعره يصف الحرب :

وَمَا تَدَاعَى الْقَوْمَ وَاشْتَبَكَ الْقَنَا
وَزَيْنٌ لِلنَّاسِ الْفِرَارُ مِنَ الرَّدَى
وَدَارَتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفَضَاءُ كَأَنَّا
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ سَمَاوَاهَا
وَدَارَتْ ، كَمَا تَهْوَى ، عَلَى قُطْبِهَا ، الْحَرْبُ
وَمَا جَتِ صُدُورُ الْخَيْلِ وَالتَّهَبُ الْفَرْبُ
سُقِينَا بِكَأْسٍ لَا يُفِيقُ لَهَا شَرْبُ
وَإِنِّي صَبُورٌ إِنْ أَلَمَّ بِي الْخَطْبُ

وقوله يصف الفراق :

مَحَا الْبَيْنَ مَا أَبَقَتْ عَيُونَ الْمَاهِيَّ
عَنَاءٌ وَيَأْسٌ وَاشْتِيَاقٌ وَغُرْبَةٌ
فَإِنْ أَكَّ فَارَقْتَ الدِّيَارَ فَلَئِنْ بَهَا
بَعَثَتْ بِهِ يَوْمَ النَّوَى إِثْرَ لِحْظَةٍ
فَهَلْ مِنْ قَتَى فِي الدَّهْرِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَشَبْتُ ، وَلَمْ أَقْضِ اللَّبَانَةَ مِنْ سَتَى
أَلَا شَدًّا مَا أَلْقَاهُ فِي الدَّهْرِ مِنْ غَبْنِ
فَوَادٍ أَضَلَّتْهُ عَيُونَ الْمَاهِيَّ عَنَى
فَأَوْقَمَهُ الْمَقْدَارُ فِي شَرَكِ الْحُسْنِ
فَلَيْسَ كَلَانَا عَنْ أَخِيهِ بِمَسْتَعْنِ

* * *

وَمَا وَقَفْنَا لِلدَّوَاعِ وَأَسْبَلْتُ
أَهَبْتُ بِصَبْرِي أَنْ يَعُودَ فَعَزَّنِي
وَمَا هِيَ إِلَّا خَطْرَةٌ ثُمَّ أَقْلَعْتُ
فَكَمْ مَهْجَةٌ مِنْ زَفْرَةِ الْوَجْدِ فِي لُظَى
وَمَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النَّوَى قَبْلَ هَذِهِ
وَأَسْكَنِي رَاجَعْتُ حَلْمِي وَرَدَّنِي
وَلَوْلَا بُنْيَاتٌ وَشَيْبٌ عَوَاطِلٌ
مَدَامَعْنَا فَوْقَ التَّرَائِبِ كَالْمَزْنِ
وَنَادَيْتُ حَلْمِي أَنْ يَثُوبَ فَلَمْ يُغْنِ
بِنَاعِنِ شَطُوطِ الْحَى أَجْنَحَةَ السُّفْنِ
وَكَمْ مُقْلَةً مِنْ غَزْرَةِ الدَّمْعِ فِي دَجْنِ
فَلَمَّا دَهَنْتِي كِدْتُ أَقْضَى مِنَ الْحَزْنِ
إِلَى الْحَزْمِ رَأْيِي لَا يَحُومُ عَلَى أَفْنِ
لَمَّا قَرَعْتُ نَفْسِي عَلَى فَائْتِ سَتَى

وقال يحن إلى مصر وهو في منفاه :

رُدُّوا على الصبا من عصري الخالي
لم يدر من بات مسروراً بلذنه
يا غاضبين علينا ، هل إلى عِدَّةِ
غِبتُم فأظلم يومي بمد فرقتكم
فاليوم لا رسنى طوعُ القياد ، ولا
أيتُ منفرداً في رأس شاهقة
وهل يعودُ سوادُ اللمة البالي ؟
أنى بنار الأسي من هجره صالى
بالوصل يومٌ أناغى فيه إقبالي ؟
وماء صُنع الليالى بعد إجمالى
قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
مثلَ القطامي فوق المرزبأ العالى

وقال يصف الناس من حوله :

إني اسرو ملك الوداد قيادتي
لكنتي غرض لأشهم حاسد
من غير ما ذنب جنيت وإعما
تعتت مقارنة اللثيم فإنها
أنا في زمان غادر ، ومعاشر
أعداء غيب ليس يسلم صاحب
وأشد ما يلقي الفتى في دُهره
شقي ابن آدم في الزمان بمقله

وقال يلوم ويحرض :

لكننا غرض للشر في زمن
قامت به من رجال سوء طائفة
من كل وغد يكاد الداستُ يدفعه
ذلت بهم مضر بعد العز واضطربت
وأصبحت دولة (الفسطاط) خاضعة
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم
أهل العقول به في طاعة الخليل
أدهى على النفس من بؤس على ثكل
بُفضاً ويلفظه الديوان من ملل
قواعد الملك حتى ظلّ في خلل
بعد الإباء ، وكانت زهرة الدول
ولا تزول غواشيكُم من الكسل

فبادروا الأمر قبل الفوت وانزعوا شكالة الرّيبث فالدينا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا لكلّ منزع سهما ومُحتسَل
عيش الفتى في فناء الذل منقصة والموت في العزّ فخر السادة النُّبَل

وكان في هذا العصر من الشعراء شعراء عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
وامتدت حياتهم المباركة إلى القرن العشرين وامتازوا ببعض المزايا الشعرية .

فحفي ناصف مثلاً (المتوفى ١٩١٩) له شعر سهل اللفظ سهل الأسلوب يمتاز بالفكاهة
الحلوة في الحوادث التي عرضت له كشكواه من (قنا) حينما نقل إليها إذ يقول :

رَقَيْتَنِي حَسًّا وَمَعْنَى فلصنمك الشكر المثنى
وجعلت رأس الحاسد ين بمصرَ من قدمي أدنى
أسكنتني في بقعة فيها غدوتُ أعزُّ شأنا
أرد الشارع سابقاً والسبق عند الورد أهنا
وأزور آثار الملو لك وكنت قبلُ بها مُعْنَى
بلدٌ إذا حلت به قدماك قلت حلتُ حصنا
قالوا شخصت إلى قنا يا مرحبا بقنا و«إسنا»
قالوا : قنا حرٌّ قلا ت وهل يرُدُّ الحرَّ قنا
سر الحياة حرارة لولاه ما طيرتُ تغنى
كلّا ولا زهر تبسّم ، لا ولا غصن ثننى
ها قد أمّنتُ البردَ والبُرْداء ، والقلب اطمانا
ووقبتُ أمراض الرطوبه ، واسترق الرياح وهنا
ألقي الهواء فلا أها ب لقاءه : ظهراً وبطناً
وأنام غير مدّثر شيئاً إذا ما الليل جنّا
قد خفت النفقات إذ لا أشتري صوفاً وقطناً
وفرتُ من ثمن الوقوف د النصف أو نصفاً وثمنا
فالشمس تكفل راحتي فكانها أمى وأحني

فإذا بدت لي حاجة في الغسل ألقى الماء سُخْنَا
أورمتُ طبخاً أو غلاً حج الخبز ألقى الجوّ فرنا
سكنى القرى تدع الفسيه موكلاً بالمسال مُدْنَى
أنى الملاهي فيه يصرف ماله ومتى وأنى
عش في القرى رأساً ولا تسكن مع الأذئاب مدنا
ودع الجزيرة والمها والجسر والظبي الأعنا
واشلى الأغاني والفوا نى، واسأل الرحمن عدنا

ومثل إسماعيل باشا صبري المولود سنة ١٨٥٤ والتوفى سنة ١٩٢٣ ، ويمتاز بثقافته
الواسعة إذ درس القانون في مصر وفرنسا ، ورتقى في المناصب الحكومية إلى أن عُيّن وكيلاً
للحقانية . وقد شعر فيما شعر فيه أسلافه من مديح وتهان وتبريط ، وسلك في ذلك مسلك
الشعراء الذين قبله والشعراء المعاصرين له ، فمدوحه : قد سفر فلاح منه هلالُ سعود ،
وبدا فكان غرّة الوجود . وهو بحر مستمدب الورد ، ييم كل الناس بالرفد .

ويُحلى شعره بالتورية والجناس ، ويختتمه بالتاريخ فيقول :

فيا (مالكى) (نيمان) خذك (شافى)

لدى (حنبلى) العذل إذ قام بالعدر

ويقول :

فأهناً بنجلك إن السعد أرّخه (ليب دام لك المحفوظ محمود)

أما الناحية التي نبغ فيها فهي مقطوعاته القصيرة يُجرى فيها ذؤب قلمه ويمزج فيها دم
نفسه بمعناه وانظله ، يضى فيها لنفسه ، ويقصد بها إلى بث لوعته ، وتخفيف كربته . وقد
كان في هذا يتحرى أن ينتقد شعره قبل أن ينتقده الناس ، يطبل إجماله المعنى في نفسه ،
ويتبريث في نظمه ، ويتسهل في صوغه ، يفوص على المعاني كالمفوص على اللآلى ، ثم
لا يقنع بأية لؤلؤة ولا يرضى بها إلا أن تكون غاية القصد وواسطة المقد ، ويرى أن شعره
كرضه يحرص أن يطيب نشرها ، ويحذ في الصحائف ذكرها . ويقول في ذلك :

شعر الفتي عرضه الثاني فأخبر به الأ يشوّه بالأقذار والوَصْر
فاقد كلامك قبل الناقدين تَحْطُّ ثانی النقيبين من لغو ومن هذر
وهذه المقطوعات التي عني بها يتجلى فيها صدق العاطفة حتى ليكني السامع لبكاه ،
ويأنف لأنفته ، كما يمتاز بدقة المعنى ورقته حتى تأه مناغاة أطيار ، أو مناغمة أوتار . ويصني
إليه السامع في دعة وسكون لافي ضوضاء وجلبة ، ولهذا كثيراً ما تقني به المغنون ، وأعجب
به السامعون ؛ من مثل قوله :

أقصر فؤادي فما الذكري بنافمة ولا بشافمة في ردّ ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنًا تحلّ الصباة فاخفق وحدك الآنا
هلاً أخذت لهذا اليوم أهبتة من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحما في الوصل ناراً وفي الهجران نيرانا
وقوله :

يامقرّ الغزال قد صح عندي الـ يوم أنى اقتحمت منك عرينا
رابني فيك ما أرى من عيون بات يُغزى بها السواد عيونا
وضلوع جاءتك وهي خوال ثم عادت ملأى هوّى وشجوننا
ما الذي يبتني غزالك مني جد كوني عبداً له أن أكرما
كلما قلت : قد أبلّ فؤادي ساورته الذكري فجئن جنونا
وقوله :

لأراحة القلب يا شغل الفؤاد صلي متبياً أنت في الحالتين دنياه
زيني الندى وسبلي في جوانبه لطفاً بهم رعايا اللطف ربّاه
ريحانة أنت في صحراء مجدية من الرياحين حياءنا بها الله
إن غاب ساق الضلا أوصد ، لا حرج هذا جمالك يفنينا نحياه
وقوله :

أبتك ما بي فلب ترهحي ررحمت أخا لوعة من حُبنا
وأشكو الغوى ما أمر النوى على هامم إن دعا الشوق لبنا

وأخشى عليك هبوب النسيم وإن هو من جانب الروض دجبا
وأستغفر الله من برهة من العمر لم تلقني فيك صبا
تعالني نجدد زمان المناء ونهب ليليه الفتر نهبا
تعالني أذق بك طعم السلام وحسبي وحسبك ما كان حربا

وربما كان من الظواهر التي تلت النظر ظهور أدبيات شاعرات بجانب الشعراء ،
قد تقفن كما يتقن الرجال ، وشعرن كما يشعر الرجال .

ومن أبرز هؤلاء ، نثية التيمورية المولودة في القاهرة (١٨٤٠) والمتوفاة في أوائل القرن
العشرين (١٩٠٢) نشأت في بيت من بيوت الفضل والأدب ، وتقت اللغات العربية
والتركية والفارسية ، ونظمت الشعر بها ، ولها ديوان شعري أسمته حلية الطراز ؛ وكتاب
نثرى أسمته نتائج الأحوال . ومن شعرها قولها :

بيد العفان أصون عز حجابي وبهمتي أحمو على أترابي
وبفكرة وقادة ، وقرينة نقادة ، قد كملت آدابي
فجعلت مرآتي جبين دقاتر وجعلت من نقش المداد خضابي
ما عاقني خجلى عن المليا ولا سدل الخمار بطني ونقابي
عن طي مضمار الزمان إذا اشتكت صعب السباق مطامح الزكابي

ومن هؤلاء وردة اليازجي (١٨٣٨ — ١٩٢٤) وهي ابنة الشيخ ناصيف ، ولدت
في لبنان وأفادت من أيها فنون الأدب ، ومات عنها زوجها فانتقلت إلى مصر ، حيث
أخذت تنشر نظمها ونثرها ، ولها ديوان مطبوع معروف .

وليس في شعرها وأمثالها جديد ، وإنما الجدة فيه أنه شعر نساء .

ثم انتقل الشعر خطوة جديدة بعد ذلك تتجلى في تحوله إلى النظر إلى الشعوب ،
والإكثار من موضوعات الوطنية والقومية والاجتماعيات ، من مثل طلب الاستقلال ،
ومحاربة الاستعمار والمستعمرين ، والمطف على المظلومين والنكوبين .

وقد بدأ هذا التحول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ونما في القرن العشرين ،
وشعر فيه من عاشوا في هذين القرنين أمثال شوقي وحافظ وخليل مطران وولي الدين يكن
والزهاوي والوصافي .

وتبع ذلك رقي منزلة الشعر فبعد أن كان ينظر إليه كما ينظر إلى الضارب بالدف
يتفتن بالمدايح أصبح يُنظر إليه على أنه فنان ماهر يخدم الهيئة الاجتماعية ويبين عنها ؛
وسبأني توضيح ذلك عند الكلام عن القرن العشرين إن شاء الله .

وقد ظهر التجديد في الشعر أيضاً في التمرض للموضوعات الجديدة كالقول في المخترعات
الجديدة من مثل القول في القطار والطائرة والمنطاد والكهرباء ، وكالقول في مظاهر الحياة
الاجتماعية الجديدة كتحريم المرأة وغيرها ، ومن أمثلة ذلك قول نجيب الخداد (المتوفى
١٨٩٩) في القطار :

قد اختصروا التجارة من قريب	فقدم في الدقيقة أو يسار
كأن وجوههم ندىمًا وحرزنا	كساها لون صفرتِه النضار
فينا تبهرُ الوجناتِ وِرداً	إذا هي في خسارتهم بهار
عصائب لا يودُ المرء فيها	أخاه ، ولا يُراعى الجار جار
يلاحظ بعضهم بعضاً بعين	يكاد يضيء أسودها الشرار
فكم غضبوا على الأيام ظلماً	وكم حننوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النساء تبيت تشكو	وتسعدُها الأصبية الصفار
تبيت على الطوى ترجو وتخشى	بوارقها السهاد والانتظار
فبئت عيشة الزوجات حزن	وتسهد وهجر وافتقار
وبئت خلّة الفتيان هم	وألعاب وخسران وعار

وكقوله في وصف القطار :

نخلٌ عن التشبيب بالبيض والشمر
ودع عنك تشبيه المحاسن بالبذر
وعجني إلى طرق الحديد ووصفها السجد
ودع مامرًا من قديم الدهر
ففيها يروق الوصف وهي حقائق
وفيها يحقُّ التمتع لامذهب الشعر

وعنها يصح القول إن قيل بارق يشق الفلا لا عن جواد ولا مهر
فطيرٌ بلا جناح ، وطود بلا بقا وبرق بلا جوّ وهادٍ بلا فكر
بلى هي طير ، والبخار جناحه وطودٌ إذا شبت بالطود ما يسرى
وبرق ولكنّ الدخان سحابه وهادٍ له لبّ توقّد عن جر
يسير فما يدرى لسرعة مسيره أنجرى لديه الأرض أم فوقها يجرى
والريح حوليه حفيفٌ ، كأنه حفيف جناح الصقر حنّ إلى الوكر
إذا ثارت فوقه راية من الدخان لنبي أنه ملكُ القفر
تمزّقها الأرياح حنفا كأنها تحاول في تمزيقها الأخذ بالنار

ومن مظاهر التجديد التي حدثت ما كان من أثر هجرة جماعة من السوريين واللبنانيين إلى القارة الجديدة وتشربهم من مناهل الحياة الاجتماعية ، وثقافتهم بالثقافة الحديثة ، فأثروا في الشعر مجدداً ، وكان على رأسهم جبران خليل جبران المولود في لبنان ١٨٨٣ والمتوفى في نيويورك ١٩٣١ وتظهر هذه الجودة في سعة الخيال ، ومحارلة خلق الشعر المرسل ، والتأثر بالأساليب الغربية ، كما تظهر من ناحية أخرى في الإشادة بالحريّة والثورة على ضعف الإنسانية الغربية .

ولم تتم هذه الحركة وتنضج إلا في القرن العشرين ، ومن ثم نرجى تأريخها إلى ما بعد .

(ب) النثر

كان حظ النثر في الرقّ خيراً من حظ الشعر لأن المثقفين من النابرين ثقافة غربية كانوا أكثر عدداً من المثقفين من الشعراء وذلك طبيعي ، ولأن حاجة الأمة إلى النابرين أكثر من حاجتها إلى الشعراء فالنثر ضروري والشعر كلى ، فقد استخدم النثر في الصحافة وفي تأليف الكتب وفي تبادل الرسائل وفي الدعوة إلى الإصلاح وفي الخطابة وفي الترجمة

الأدبية والحركة العلمية ، وقد تعاونت هذه كلها على تقدم النثر وصفله حتى وُقِّع أن يخطو هذه الخطوة الواسعة .

وكذلك استطاع النثر بعد قليل من ظهور عوامل النهضة أن يتحرَّر من القيود الثقيلة التي كان يتقيَّد بها . تحرَّر من السجع فانطلق وتدقق ، وكان للصحافة أكبر الأثر في ذلك لأن الأسلوب الصحفي يحتاج إلى السرعة والانطلاق ، كما تحرَّر من المحسنات البديعية الأخرى ، ومن تكرار الجمل المملَّة في المعنى الواحد ، وتخلَّص بالتدريج من المقدمات الطويلة التي كان يتكلمها الكاتب أمام الموضوع ، كما اتجه الكتاب تدريجياً إلى تقويم المعاني كما توَّعوا الألفاظ بعد أن كانت المعاني في المرتبة الثانية والألفاظ في المرتبة الأولى

وتقدم النثر فوق ذلك من ناحية القصد في المقال إلى معنى واحد محدَّد يولده الكاتب ويستوفيه بعد أن كان الكاتب يقدم على الكتابة وليس له معنى محدود ، بل يقبض هنا وهناك من غير قصد ومن غير غرض .

ونما كما نمت فكرة التحليل وكان يغلب على الأدب فكرة التركيب كل هذا كان أثر من أثر الصلة بالثقافة الأجنبية والاطلاع عليها والاستفادة منها وهضمها وتقليدها . كما تأثر النثر من ناحية الأسلوب فنسرب إليه أنماط من الأساليب الأجنبية واستعمال صيغ لم تكن تُعرف في اللغة العربية .

وكما كان للثقافة الأجنبية أثر ظاهر في كل ذلك كان أيضاً للرجوع إلى الكتب العربية القديمة ذات الأسلوب الجيد المرسل أمثال كتب ابن المقفع والجاحظ وغيرهما أثر عند بعض الكتاب في جزالة اللفظ وحسن السبك والاقتراب من نماذج النثر العربي الأصيل .

كما كان للبيئة وأحداثها وما تداول عليها من ظلم ومكافحة للظلم ، واحتلال ومناهضة للاحتلال ومطالبة بالاستقلال ، وسوء حالة اجتماعية ورغبة في الإصلاح ، أثر في صبغ النثر بأصباغ جديدة فكثرت الكناية في الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وأن يدبَّ ديب الحرارة والحماسة في هذه الموضوعات فيكسبها قوة من حيث المعنى ومن حيث الأسلوب ومن حيث الأدب أيضاً .

وكان من عوامل التقدم في هذا الباب اطلاع نخبة من المثقفين على ما كتب في مثل

هذه الموضوعات في اللغات الأجنبية والتأثير بها ، والافتقار منها ، وإبرازها في شكل يتفق والذوق الشرقي والأحاسيس الشرقية .

ونضج التقدم في دراسة العلوم من طبيعة وكيمياء وقانون وطب وهندسة وفلك وغير ذلك على النثر العربي ، والنثر عادة أكثر تأثراً بهذا من الشعر لقرب النثر من الحقائق ، وقرب الشعر من الخيال ، فكان من أثر ذلك ميل النثر إلى الدقة في التعبير ، والنطق في التحرير ، والصحة في المهج ، واستخدام كثير من القضايا العلمية في الأدب .

وعلى كل حال فقد تأثر النثر العربي في هذا القرن بمؤثرين كبيرين : الثقافة العربية وأظهر ما كان أثرها في المعاني والموضوعات ، وتسرب بعض الأساليب من الثقافة العربية القديمة وأظهر ما كان أثرها في الجمالية وحسن السبك وبعض العبارات أيضاً .

وهناك من الكتاب الأول من تأثر بالمائل الأول أكبر أثر ومنهم من تأثر بالعامل الثاني أكبر أثر ولم تخل طائفة من الطائفتين من التأثر بالأخرى إلى مدى قريب أو بعيد . ثم عامل ثالث وهو ما كانت توحى به البيئة الاجتماعية ومطالبها .

وتتضح نهضة النثر وتقدمه إذا نحن قارنا بين النتاج الأدبي في أول القرن التاسع عشر من مثل الكتاب الذي أُجمع فيه إنشاء الشيخ حسن المطار (المتوفى ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٥ م) للسمى « إنشاء المطار » ؛ وبين هذا النتاج الأدبي في أواخر القرن التاسع عشر من مثل ما كان ينشره إبراهيم المويلحي (المتوفى ١٩٠٦ م) في مجلة «المصباح» وكتابه «ما هناك» يقول الشيخ حسن المطار في رسالة إلى أحد إخوانه :

أما بعد ، فإن أحسن وثى رَقَمَتَهُ الأفلام ، وأبهى زَهْرُ تَفْتَحَتْ عَنْهُ الأكام ، عَاطِرُ
سلام بفوح بعير المحبّة نَفْحُهُ ، وبشرق في سماء الطروس صَبْحُهُ .

سلام كزهر الروض أو نفعة العبا أو الراح تُجَلُّ في يد الرشا الأسمى
سلام عَاطِرُ الأردان ، تحمله العبا سارية على الرند والبان ، إلى مقام حضرة الخالص
الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة المين والقواد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذي
حلّى بها معضه وجيده ...

ويقول إبراهيم المويلحي في كتابه (ما هنالك) ينقد موكب الخليفة العثماني في صلاة الجمعة (المقالة العاشرة) :

ما يقصر في موكب انتصاره ، ولا الإسكندر في يوم افتخاره ، أستغفر الله ! بل ما سعد قادماً من القادسية ، ولا المعتصم قافلاً من عمورية أملاً للقلوب مهابةً ولا للعيون بهاءً من رؤية جلاله السلطان يوم الجمعة في موكبه .

في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالاً وفرساناً من أطراف الآستانة فشرة آلاف أو يزيدون ، فينتظرون في طريق السراي السلطانية صدور الإرادة السنية بتعيين المسجد . فإذا صدرت اجتمعت العساكر صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض . وفي هذه الأثناء تنساب مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والأجانب من السفراء وغيرهم ، فيجلس السفراء ومن كان معهم من عليه قومهم الوافدين على الآستانة في قاعة الجيب الهياوئي المظلة على تلك الساحة التي لا يسمع السامع فيها قبلاً ولا صهيلاً إلا صليل الأسياف وترديد الأنفاس هيبة وإجلالا ، وانتظاراً واستقبلاً لإشراق نور الحضرة السلطانية . فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياءً من مطلع السراي ، والمشيرين وكبار رجال (المباين) حاقون من حول المركبة مشاة خشع الأبصار ترهتهم ذلة من جلاله تلك العظمة الإمامية ؛ وهم في غير هذه الساعة أكسرة الزمان وقياصرة الرومان كبراً وجبروتاً وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون ، وعلى صدورهم نياشين الجواهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب . . والنشان عنوان كنيته الدولة ووضعت على صدر حامله شهادة منها للناس بيان ما هو مكنون وراءه من فضائل الغيرة والحمية ، فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في القلب ، كانت كبائع ينش الناس بوضعه على زجاجة الخلل عنوان ماء الورد أما المراقبة والحفظ على المسجد من جهاته الست فلا يقدر على وصفها واصف . . ولا يدخل المسجد مصل إلا إذا فتشه المراقبون تفتيش اللص سرق نص خاتم . وإن الخطيب ليتجنب في خطبته كل آية وكل حديث فيه ترغيب في المدل أو تنفير من الظلم أو إيحاء إلى موعظة من نهى عن منكر أو أمر ، بمحروف . ولا يدور في تلك الخطبة من كل جمعة إلا حديث واحد اخبروه لبعده عن كل تأويل وهو « إن الله جميل يحب الجمال »

فإنَّ جاء عيد الأضحى استبدلوه بمحدث آخر وهو قوله « سمنوا ضحاياكم » وهكذا في مساجد
الآستانة لا يخطب الخطباء إلا بهذين الحديثين .

وقد قطع النثر هذه المسافة كلها على خطوات ، واملّ الذي يمثل الخطوة الأولى رفاعة
زافع الطبطبازي ، فقد كان من أكبر عوامل النهضة العلمية والأدبية في مصر ، سافر إلى
فرنسا سنة ١٨٢٦ ، وعكف على دراسة اللغة الفرنسية ، ولما عاد سنة ١٨٣١ تولى ترجمة
الكتب الهندسية والفنون العسكرية ، ثم ترجم جغرافيا « ملطبرون » وأكبر أثره في
خدمة النهضة ما قام به في مدرسة الألسن من تعليم كثير من الطلبة الترجمة إلى اللغة العربية ،
قدم هو وتلاميذه الآداب العربية بمعناها الواسع كتباً قيمة في مختلف العلوم كانت دعامة
من الدعائم التي قامت عليها الحركة العلمية . وكان حركة دائمة في التأليف والترجمة
والتدريس ، ألف رحلته إلى فرنسا وسماها « خلاصة الإبريز والديوان النفيس » وفيها
نظرات اجتماعية صادقة . كما ألف كتاب « المفخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر »
وكتاب « المرشد الأمين في تربية البنات والبنين » ، ويُمدّ بحق الخطوة الأولى في الدعوة
إلى تعليم البنات تلتها الخطوة الثانية التي خطاها قاسم أمين في كتابه « تحرير المرأة » .
وَألف كتاباً في تقريب النحو سماه « التحفة للكنتية » وكتاباً سماه « مباحج الأباب »
بحث فيه في آداب العصر وعلومه ، فكان خطوة جديدة في الابتكار في التأليف ، وشرح
« لامية العرب » وألف « نهاية الإيجاز » في السيرة النبوية ، إلى غير ذلك من الكتب في
مختلف فروع الثقافة .

هذا إلى عمله الدائب في الإشراف على ما يترجمه تلاميذه وإصلاحه ، وإرشادهم إلى
النهج التويم في الترجمة .

فه فضل على النهضة الحديثة في تقديم ذخيرة قيمة من الفكر الأوربي ، وتأثره
بالثقافة الفرنسية ومضما ، وإخراجها في تأليف تتصل بالإصلاح الاجتماعي في مصر .

والحق أنه أغنى الفكر العربي أكثر مما أغنى الأسلوب الأدبي فقد كان يغاب عليه
أثر العصر الماضي في حبه للسجع والبديع ، وسائر ما قيّد به النثر القديم . ولكنه تحرّر من

ذلك في الترجمة بطبيعة الحال . وكان انتقاله في الأسلوب انتقالاً بطيئاً بحكم التطور . تحلل من بعض القيود وحافظ على بعضها ، ولم يتدفق ولم ينطق لأن الطبيعة أبت عليه الصخرة . وقد مات رفاة الطهطاوى في عام ١٨٧٣ بعد أن خدم النهضة طول حياته خدمة لا تقدر . ومن أمثلة نثره هذه القطعة في حب الوطن :

إن حب الوطن من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان . ومولد الإنسان على الدوام محبوب ، ومنشؤه مأروف له ومرغوب . ولأرضك حرمةً وطنياً ، كما لوالدك حقّ لبنها . والكرام لا يجفوا أرضاً بها قوائمه ، ولا ينسى داراً فيها قبائله . فإني وإن ألبستني المحروسة نعمة ، ورفعت لى بين أسالي عملاً ، وكانت أمّ الوطن العام ، ووليتي الآلاء والإنعام ، وأحبها - مجاًجماً ، لأنها وبيّة النعمى ، وقضيت فيها الأربعين مجاوراً « كرام السجاياء والبحور الطواميا » فلازلت أنشوق إلى وطني الخصوصى وأنشوف ، وأتطلع إلى أخباره السارة وأتعرف ، ولا أساوى بطهطا الخصبه سواها ، فى القيام بالحقوق وإكرام مشواها .

منارل لست أهوى غيرها سقيت حياً يعم ، وخصت بالتحيات

وأمنحها زمناً بعد زمن الزيارة ، وأجدد فيها من هبات الحكومة العيارة ، وأبذل فى محبتها النفيس لتحصيل الأراضى للزرع والغرس ، وأفتخر بها كما افتخر عصام بالنفس ، وأنشد قول الحافظ كحل الدين الأذفوى :

أحنّ إلى أرض الصميد وأهله وبزداد وجدى حين تبدو قبائها

ونذكرها فى ظلمة الليل مهجتي فتجربى دهوعاً إذ يزيد التهايبها

وربما تجلت الخطوة الثانية فى رقى النثر فى كتابات عبد الله باشا فكرى والشيخ ناصيف البازجى . أما عبد الله فكرى فقد كان ، بحق ، خليفة رفاة الطهطاوى ، لا من حيث الترجمة فقد كان لا يعرف إلا العربية والنركية ، ولكن من ناحية أنه كان مركز الحركة الفكرية فى عصره . اتصل بالتعليم حتى كان ناظر (وزير) المعارف المصرية ، وكان اليد اليمنى لمل باشا مبارك فى تأليفه وأعماله العملية . وله رحلة وصف فيها سفره إلى أوربا بحضور مؤتمر المشرقين الذى عقد فى استكهولم سنة (١٨٨٨) ، ولم يشمها ، ولكن أتمها ابنه

من بعده ، ونشرها سنة (١٨٩٢) . كما أنه ألف كتاباً مدرسية مثل (الفصول الفكرية) نقل بها التأليف المدرسي خطوة جديدة . والناظر في كتابه (الآثار الفكرية) يرى أنه يتأرجح بين الأسلوب القديم في بعض الموضوعات والأسلوب العصري في بعضها . وهذا شأنه أيضاً في الموضوعات التي اختار الكتابة فيها ، وهو إلى القديم أقرب في أسلوبه ، وإلى الحديث أقرب في موضوعاته . ولعل ذلك ناشئ من أنه نشأ نشأة أزهريه ، وتأدب بآداب العربية القديمة ، ولم يكن له إلى جانب ذلك ثقافة أوربية راسخة ، وإنما نال هذه الزعامة الأدبية في عصره باستمداده الطبيعي الجيّد وبتصاله بالأوساط الراقية التي كان يتشرب منها أفكاره الجديدة ويُعمل فيها فكره فينميها ويولدها .

وقد مات عبد الله فكري سنة ١٨٨٩ بعد أن أثر في النهضة الحديثة أثراً بالماً . ومن نماذجه في الكتابة قوله في كتاب إلى أحد أصحابه ينفذ سيرة بعض المشتغين بالعلم وطرائقهم في تعلمه ، وتصورهم عن الإفادة منه (الآثار الفكرية ص : ٢٠٧) .

وسألت عن فلان وفلان ، وهيان بن بيان ، ممن ينسب للعلم وأهله ، ويتظاهر بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحى تعظم وتطول ، وشوارب تحف وتستأصل ... ثم يتشدد في الكلام ، وتباله في المرام ... ، ثم يقول الإنسان حضرت درس فلان وسمعت من لفظه باللسان ، وقضيت في العلم كذا وكذا سنة من الزمان ، فهم أعلم من أفلته الغبراء ، وأفقه من أظنته الخضراء ، وإن كان للعلم غير هذه الآلات ، فالعلم سوى هذه الحالات ... وعلامة ما يبتنا وبينهم أن يؤمر أحدهم برقمة تكتب لحاجة مهودة ، ويمتنح بكتاب غير هذه الكتب المدودة ... وقد صررتُ بالأمس على أحدهم في الدرس ، يقرأ القطر لابن هشام ، ويلحن لحن العوام ، وصررتُ بآخر يدرس الكافي في على العروض والقوافي ، يقرّر قوله .

قف على دارهم وابكين بين أطلالها والدمن

فلا وربك ما أقام له وزنا ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه ، وظهور معناه ... وقد كانت هذه العرب تتكلم بهذه اللغة المليية على الفطرة الأصلية .. إلى أن اختلطت أنسابهم وتقطعت أسبابهم ... وخيف أن تذهب هذه اللغة المنيفة ، التي هي مدار الشريعة

الشريفة... فقَيِّضَ اللهُ لحفظها الأمة الأعلام، هداة الأمام.. فصنّفوا تلك الفنون العديدة،
وأهوا هذه الكتب المفيدة، لتسهيل الأرب من لغة العرب.. واستمر العمل على ذلك
إلى أن خلف هذا الخلف الملووم.. فظنوا تلك الوسائل مقاصد ليس بعدها غاية لقاصد،
وحسبوا هذه الكتب تقصد لذاتها، ويكتفى بالتعبد بكلماتها، فوقفوا عندها، ولم يتجاوزوها
لما بعدها، واتخذوا الأدب وراهم ظهرياً، وجعلوا النظم والنثر شيئاً فرياً.. وما ينفع الإعراب
من لا يعرب عن المرام، وماذا يعمل بالصرف من لا يتصرف في أساليب الكلام، وماذا
ينفي المروض عن قوم لا يشعرون، والمعاني والبيان عن قوم لا ينظمون ولا ينثرون...
أما الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) فقد عاش في بيروت وغلب عليه
الأدب وتأثر بما أطلع عليه من العلوم الغربية وأتاط التعليم الجديدة، وأكثر من قراءة
الآداب العربية والاطلاع عليها، وقلدها، وأخرج من ذلك كله نتاجاً فيه مسحة من
القديم ومسحة من الجديد. فقد كتب مقامات كثيرة سُميت مجمع البحرين هذا فيها حذو
مقامات الحريري، كما عُني بتأليف كتب لتلاميذ المدارس نحا فيها نحواً جديداً يقرّبها إلى
الأذهان من مثل كتابه «فصل الخطاب في الصرف والنحو» و«الجمان في علم البيان»
و«نقطة الدائرة» في المروض إلى كتب أخرى. وهو، وإن تأثر بالقديم في أسلوبه فقد
تأثر تأثراً شديداً بالميل إلى الوضوح والسهولة في نثره وشعره.

يقول في إحدى مقاماته يفاضل بين العلم والمال «المقامة الأربعون: الجدلية» حدثنا
مُهَيْبُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ: أَصَابَتْنِي وَغَسَّكَ شَدِيدَةٌ، مَدَّةٌ مَدِيدَةٌ، فَانْعَكَمْتُ عَلَى تَوْفِيَةِ الْعَلَّامِ،
وَتَقْيَةِ الْأَعْفَاجِ^(١)، مِنْ الْأَمْشَاجِ^(٢)؛ فَلَمَّا أَمِنْتُ مَسَّ الْعُرَّاءِ... دَعَانِي الْمَلَالُ إِلَى التَّرَاهَةِ:
حَتَّى دَخَلْتُ يَوْمًا إِلَى حَدِيقَةٍ جَمِيلَةٍ، ذَاتِ خَيْمَةٍ، قَد رَتَمَتْ بِهَا عَصَابَةٌ جَلِيلَةٌ. وَإِذَا رَحَلُ
عَلَيْهِ رِدَاءٌ، مِثْلُ الْوَأْوَاءِ، وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ مِثْلُ النَّعْمَاءِ، وَهُوَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى شَيْخٍ أُدْرَدِ^(٣)،
وَقَدْ انْتَمَتْ حَتَّى صَارَ كَالْأُرْدِ، فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ أَنَّ الْمَالَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلَيْهِ
نَمُوتُ وَنَحْيَا، فَإِنَّهُ يَقْضَى لِبَانَةِ الْأُرْدَى بِالْمَسْرَةِ، وَيُسَهَّلُ طَرِيقَ الْأُخْرَى بِالْمَبْرَةِ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ
الْعَيْشِ، وَنِظَامُ الْجَيْشِ، وَبِهِ قِيَامُ الْمَالِكِ، وَتَهْمِيدُ الْمَسَالِكِ، وَدَفْعُ الْهَالِكِ، وَهُوَ قَاضِي

(١) الأعماء. (٢) الأخطاط. (٣) لا أسنان له.

الحاجات ، ورافع الدرجات ، ومستعبد السادات وخارق العادات ولولاه لتعطلت الأعمال ، وحانت الآجال ، وانقرضت القرون والأجيال .

فانبرى له الشيخ كأويس وقال : لا أفلحت ماغب غُبَيْس^(١) . وبك ، إن المرء بالعلم إنسان لا بالمال ، وهو المِرْقاة إلى درجات السكال ، وبه تعلم الحقائق ، وتدرك الدقائق ، ويعرف الخلق حق الخالق . . . وعليه يُنفق الطريف والنائد ، وصاحبه يزال الذكر الخالد ، فكلم من الملوك والأغنياء الذين كانت مفاتيحهم تنوء بالعصبة الأقوياء ، وقد درس ذكركم وبقي ذكر العلماء ، وحسبك أن العلم لا يناله إلا أفاضل الرجال ، ونجى صاحبه من الأهوال . فلما سمع القوم ما دار بين الرجلين ، قالوا للشيخ ترى صاحبك قد أخذ طريق العُنْتَلين^(٢) وإنا لنراه من الأغنياء والأغنياء ، فإنه لا يعرف منزلة العلم والعلماء . فاستشاط الرجل غضباً ، وقل عش رجياً ، تر عجباً ، كيف يتأتى المرء بين اثنين ، وقد وضع الضُبح لذي عيين . . . تباً لملك أيها الشيخ الساهل ، الذي بنوه كاليتامى وزوجته كالمامل^(٣) ، وماذا ترى عليك إذا كنت تشتهي فومةً من الشِّدام^(٤) . أنا كل القضم^(٥) إذا طويت ، وتابَس القرطاس إذا عريت ، كان للعلم دولة عند أنماط الكرام ، الذين عندهم لكل مقل مقام ، وأما في هذا الزمان فإن المال هو الرهص^(٦) الذي يُبنى عليه ، والركن الذي لا يُلمت إلا إليه ، فهم يكرمون الأديب ، ولا يحترمون اللبيب ، ويصرمون الفقيه ، ولا يُكرمون النبيه . . . فتمضن عنك ما أنت فيه ، ولا تتخلق بأخلاق السفيه ثم أنشد .

قد عرف الشيخ علوم الورى لكن هذا العلم^(٧) لم يدره

فليتسه أدرك هذا ولم يدرك بواق العلم في عمره

فانكفاً الشيخ بذلة الخائب ، وقال مع الخواطي سهم صائب . فأنف القوم من ذلك الشجار ، وشعروا بما متهم من نار الشنار ، فنفعه كل واحد بدينار . . . قال سهيل : وكان

(١) أى طول الزمن .

(٢) طريق مضل في بلاد العرب . وهو مثل يضرب للرجل إذا ضل .

(٣) المرأة لا زوج لها .

(٤) الفومة : قدر ما تحمل بين إصبعيك . والشِّدام : الملح .

(٥) الجلد الأبيض يكتب عليه . (٦) أسفل الحائط .

(٧) أى العلم الذى ينتفع به .

الزحام قد حال بيني وبينها ، فلم أملك أن أتبين عنهما ، فرصدتهما ارتقبا حتى لقيتهما نقابا .
وإذا هما شيخنا الميمون وغلّامه رجب ، فكلمت أصفق من العجب . فأمرني الشيخ بالتمود ،
وقال انتظرنا إلى أن نهود . فسكنت كمتظر القارظين^(١) ، ولم أظفر لهما بأثر ولا عين .

وربما مثل الخطورة الثالثة من خطى النثر الشيخ محمد عبده (١٨٥٣ - ١٩٠٥) ، في
إنتاجه العلمي والأدبي الأخير من مثل مقالاته التي كانت تنشر في مجلة (المنار) ، وفي ردّه
على (هاوتو) . وفي كتابه (الإسلام والنصرانية) كما يمثل هذه الخطوة أيضاً أديب إسحاق .
أما الشيخ محمد عبده فكتاباته متأثرة بنزعتة القوية نحو « الإصلاح الديني » ، وقد
تجلّت فيه هذه النزعة منذ أن كان طالباً في الأزهر ، وقويت على أثر اتصاله بالشيخ حسن
الطويل أولاً ثم بحال الدين الأفغاني ثانياً — ولما اتصل بحال الدين وُجدت عنده النزعة
السياسية والوطنية بمعناها الواسع الذي يشمل العالم الإسلامي كله .

والناظر في أسلوبه يرى أنه متأثر بالقديم في أول أمره حين كان ينشر مقالاته في الوقائع
والأمم فلما نفي إثر حوادث عمري باشا وجاء بيروت اتصل بالكتب الأدبية ونشرها بعد أن
شرحها مثل مقامات بديع الزمان الهمداني ونهج البلاغة ، ويظهر أن نهج البلاغة أثر فيه أثراً
كبيراً ، وطمع في ذهنه أساليب قوية جزلة . ثم لما اتصل بحال الدين الأفغاني وحرّر معه
مجلة العروة الوثقى تدفق أسلوبه كما تفتضيه الكتابة الصحفية ، وتحرّر من السجع تحرراً
واسعاً . ولما عاد إلى مصر بدأ يتعلم الفرنسية ويقرأ كتبها ويطلع على ثقافتها ، وطريقة
معالجتها للموضوعات ، كما اطلع من كتب البلاغة القديمة على كتابي « دلائل الإعجاز »
و« أسرار البلاغة » وعُني بنشرهما — وهما كتابان لهما أسلوب جزل وتعبير قوي وإرشاد
إلى مواقع الحسن في الكلام وتربية الذوق الأدبي — كل هذا أثر في أسلوبه ، وجعل له
خاصة القوة والوضوح والتدفق ، حتى لتحس وأنت تقرأ أسلوبه القديم وأسلوبه الجديد ،
أنك تقرأ لسكاتبين مختلفين تمام الاختلاف .

وعلى الجملة فقد نقل الشيخ محمد عبده النثر في أيامه نقلةً جديدةً بكتاباته من ناحية ،
وبهذه المدرسة التي كونها من طابته من ناحية أخرى ، فقد كان هؤلاء الطلبة يأخذون

(١) رجلا خرجا بجبان القرظ ثم لم يعودا فيئس منهما قومها وكانا مضرب المثل .

عنه وعن كتبه ومقالاته ويقلهونه وينشرهون روحه وأسلوبه وأدبه .

وقدمت الشيخ محمد عبده في عام ١٩٠٥ .

ومن أمثلة ثمره هذه المقتطفات من رده على (هاوتو) :

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ، ويعتبرون بمثل ، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هاوتو ، فقد أرشدهم إلى عيوب فيهم لا يسلمهم إنكارها ، وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيل ، وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للعدل ، وما على المهتم بحماية ذمارة ، وطالب الطهر من عاره ، إلا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة ، أو يكون مثاهم فيتعارض في الممانع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتلى بالأعالي ، ويأهو بالأضاليل ، ويقنع بالأمانى ؛ ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى والاهظ الطلى ، وهو من روح قتله خلى ، حتى إذا دهموه وهو في غفلته ، وأحذره في نومه أو يقظته ، بسط يده يلتبس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجامل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحمق .

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قل لخلد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح » .

ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاذ وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منعمة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخزال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظفر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فإذا قربت التورتان من النكاؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحل الاتفاق ، واستبد القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (المدل تكافؤ القوى) .
صرح مسيو هانوتو بأن أوروبا بعد أن كانت لا تشتغل إلا بما يجرى فيها اندفعت إلى
الاستعمار ، ولا يرددها عنه إلا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها وضرب المثل باليابان فإنها بما
ارتقت في المدنية .. قد آذنت أوروبا بقوتها ، وجمعتها على الإقرار بتكاتها .. وهو قول حق
كان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه
منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ..

.. وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر هي العلم والأدب والتجارة والصناعة
والمدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لا ينكر
أن أوروبا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجميات الدينية من أهم الوسائل
لديها في إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها عند صنوح الفرص لسوقه إليها وتهيشة نفوس
الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلم ، وفي فتح العالم التي لا يستطيع السلاح
وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها .

أما أديب إسحق ، فقد كان دمشقي الأصل ، ولد بها سنة ١٨٥٦ ، وانتقل إلى بيروت
ومصر ، واتصل بجمال الدين الأفغاني ، وحرر في الصحف . وبعد مجيئه مصر واتصاله بالسيد
جمال الدين ، أشأ جريدة « مصر » ، فلفت إليه الأنظار وقدر الأدباء أسلوبه تقديراً حسناً ،
وخافت الحكومة من تأثيرها فأقفلتها ، فذهب إلى باريس وأصدرها هناك وسماها « مصر
القاهرة » ، وقد مات شاباً في التاسعة والمشرين من عمره (١٨٨٥) وكان في كتابته نصير
الشورى والحكم النبأى ، والمدافعة عن حقوق الشعب .

وإذا كان أسلوب الشيخ محمد عبده متأثراً بالأدب العربي القديم في أزهى عصوره ،
ودعوته إلى الإصلاح مصبوغة بالصبغة الدينية فإن أديب إسحق المعاصر له كان متأثراً
بالتعاليم الأوربية الجديدة ، داعياً إلى تقليد الأوربيين في نظم الحكم ، وكان أسلوبه أيضاً
متأثراً بالأدب الأوربي ، حاراً كشبابه ، ملتبهاً من وطنيته . وقد جمعت طائفة من مقالاته
في كتاب اسمه (الدرر) .

ومن أمثلة نثره قوله يهاجم الاستبداد .

تقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شورى عند جميع الدول المتمدنة إلا روسيا ، وذلك إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . إن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فأنت من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلايب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية وما آلوا في قتالها جهداً ، فنقيتهم وهمى ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حولها .. » .

ومن ذلك هذه المحورة التي دارت بينه وبين رياض باشا حول الحكم النيابي .
« زرت رياض باشا على عهد الوزارة الأجنبية في ديوان الداخلية ، فقابلته خارجاً من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب ، فقال : كيف ترون الحال ؟ قلت رأى الوزير أوسع . قال : وما الذى يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت : إن الناس أملوا كثيراً ولم ينالوا شيئاً فأوشكوا أن يعودوا إلى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم أن النكسة شر من الداء ، فقال بازدرأ : فليجمعوا إلى حالة الخسف ، ويمأوا عذاب الظلم . قلت : إنهم لا يرومون ذلك ، ولكن يرومون نيل الحرية وتأييد الكلمة الوطنية ؛ فقال متهمكاً : ألا يرجون مجلس النواب ؟ قلت : لا بدع أن يطلب الشيء من معدنه . فقال : أى معدن فى مثل هذا المجلس ؟ وكيف يرجى له البقاء ، وليس فى مصر من يعلم شيئاً من أحوال السياسة الدولية ليصلح أن يكون نائباً ، قلت : إن صح هذا رأى فلا يقضى بحرمان البلاد من نعمة الشورى ، فإن النواب المصريين يستطيعون النظر فى أمورهم الداخلية وأحوالهم الزراعية وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه ، وهم بذلك أحق من غيرهم ، فإن صاحب البيت بالذى فيه أدرى ، فهمم بكلام لا يفهم وانصرفت » .

وقد يصح أن نقسم النثر الأدبى إلى نوعين ظاهرين : نثر اجتماعى ونثر فنى . فالنثر الاجتماعى يشمل النثر السياسى ومقالات الصحف السياسية والاجتماعية والكتب للزلفة فى ذلك .

وهذا القسم كان أكثر تحرراً من السجع وأنواع البديع وسائر الحسنات لأنه يعتمد بطبيعته على مخاطبة جماهير المتنفين واستثارة مشاعرهم وتنغذية عقولهم ، ولذلك كان له الفضل الأكبر في تحول أسلوب الكتابة من كتابة مقيدة إلى كتابة مرسلة .

وقد بدأ هذا في أول النهضة من تحرير بعض المقالات في الوقائع المصرية وفي تأليف بعض الكتب التي أنما أعضاء البعثات من مثل رفاة الطهطاوى ومدرسته مما كانوا يعرضون من صور اجتماعية طبعها في نفوسهم ما رأوا أثناء بعثتهم في أوربا .

ثم قوى هذا النوع من الكتابة على أثر تيرم البلاد من التدخل الأجنبي في عهد إسماعيل ثم قوى واشتد على أثر الاحتلال الإنجليزي والمطالبة بالاستقلال وشعور نخبة من المفكرين بسوء الحالة الاجتماعية والدعوة إلى الإصلاح .

ومن أعلام الكتاب في هذا الباب السيد جمال الدين الأفغانى (المتوفى سنة ١٨٩٧) فقد شهد حركة التدخل الأجنبي في عهد إسماعيل ، وأثار الشعور الوطنى ليصرخ في وجه الظلم ، ولما لم يكن قوى الأسلوب الكتابى ، إذ كانت تغلب عليه العجمة ، غير أنه كان ناراً تلهب يحمس كل من اتصل به ويؤثر بحديثه وبروحه في مجالسه وتلاميذه ، ويدفع كل من له قدرة على الكتابة أن يكتب وأن يجيد الكتابة فخلق مدرسة قوية الروح قوية الأسلوب .

ربما كان هذا ممثلاً خير تمثيل فيما أنشأه في باريس بعد نفيه من مجلة (العروة الوثقى) إذ كان هو روح المجلة والشيخ محمد عبده قلمها وأسلوبها .

وكان من كتاب هذا النوع من النثر الاجتماعى عبد الله نديم وكان له أثر كبير في كتاباته السياسية والاجتماعية أيام ثورة عربى ، وبعدها بما كان يخرج من مجلات ذات أسلوب قوى جذاب ، يؤثر في الخاصة والعامة على حين أن السيد جمال الدين ، وتلميذه الشيخ محمد عبده كانا يؤثران في الخاصة ، ذلك لأن السيد عبد الله نديم كان يعرض للمسائل السياسية والاجتماعية فيخاطب الخاصة باللغة الفصحى في أسلوب قريب المنل ، ثم كان يخاطب العامة باللغة العامية أحياناً ، ويقسم مجلته (الأستاذ) إلى قسمين تبعاً لهذا الغرض . وبعد الاحتلال وُجِدَت نزعتان مختلفتان في السياسية والاجتماع : نزعة تميل إلى الإصلاح

التدريجي والميل إلى الحكومة المستبدة العادلة والتدرج بالأمة حتى تنتج أفراداً ممتازين في الخلق والثقافة ، وإذ ذلك يمكن تكوين حكومة شورية وكان على رأس هذا الحزب رياض باشا ويناصره من الكتاب الشيخ محمد عبده وحزب يرى الإسراع في تنفيذ النظام النيابي وأنه هو الذي يكون الرجل ويسير بهم نحو السكل ، وكان على رأس هذا الحزب شريف باشا ويناصره من الكتاب أديب إسحق وغيره . كما وجدت فيما بعد أحزاب أخرى لما نزعاتها المختلفة ولكل نزعاً كتابها وأدباؤها .

وكان هذا كله نعمة على الأدب السياسي والاجتماعي إذ أجرى أعلام الكتاب والمب عواطفهم وجعل كتاباتهم حارة متدفقة ، فتوفر طائفة منهم على دراسة الحياة الاجتماعية : ينتقدون حالة المجتمع ويدعون إلى الإصلاح من مثل مقالات النديم والشيخ محمد عبده والمويلحي وقاسم أمين : ثم جاء الشيخ علي يوسف ومصطفى كامل وأمثالهما ، فتندما ، في صحفهما وتواجهما ، بالكتابة الاجتماعية والسياسية خطوات إلى الأمام .

وقد كان الشيخ علي يوسف أكبر صحفى مصرى ، أسس في جريدته «المؤيد» مدرسة وطنية إسلامية ، سدّت حاجة المصريين إلى جريدة وطنية تناهض الاحتلال ، وإسلامية تغدّي المواطن الإسلامى وتستجيب لها في سائر الأقطار العربية ، وحازت جريدته من الشهرة والنفوذ والسعة ما لم تحزه جريدة أخرى في عصره ، والتف حولها كثير من الكتاب يفتنونها بأقلامهم ومشاعرهم .

وقد مات سنة (١٩١٣) بعد أن خدم بقلمه الأدب والماطنة الوطنية والشعور الإسلامى خدمة كبرى .

وكان له أسلوب سيال ، متدفق ، قوى ، يتحتم فرص الأزمات الدينية والسياسية فيجربى فيها قلبه بالروائع ، فهو بحق قد نقل الأسلوب العربى المصرى الحديث نقلة جديدة . ومن أمثلة ثمره هذه القطعة كتبها تحت عنوان « لا تعصب فى مصر » :

« قالوا : إن المصريين متعصبون تعصباً دينياً ، ومعنى هذا أنهم يكرهون الخلفين لهم فى الدين كراهة عمياء ، يمتدون عليهم بروح البغضاء التناهية ، كلما سنحت لهم فرصة الافتراض أو استفزهم صاحب .

في البلاد من قديم الرمان أديان مختلفة يتجاور أهلها في المنازل ، ويتشاركون في المرافق ، ويتنافسون في الأعمال ، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت في فطرة المسلمين أو في فطرة الفريقين اللاشت الأ كثرية الألفية في عصور مضت وخصوصا في عصور كانت الجهالة فيها سائدة ، وكان بعض الحكام من الممايك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية إسلامية ، ولكن لأغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع . ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام في كل الظروف أو أكثرها .

وقد على النظر المصري منذ أول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير وفود من كل الطوائف والأجناس ... كان منهم الموظفون في كل مصلحة حتى تولّى نوبار باشا رئاسة النظار في مصر ، وكان قائم مقام خديوي ، ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف ، فهل يوجد في أمة غير الأمة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل في رأس احتفالا دينيا مسيحيا مسلم أو غير مسيحي .

وكان من علمائهم الأساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمكتشفون ، فهل الأمة التي تربي أبناءها على أيدي الأساتذة من غير دينها تعد متعصبة ؟ وكان التجار على ما يحبون من الرّحب والسّعة وحسن القبول ، فضرروا في البلاد بمتاجرهم من غثّ وسمين ، وجيّد وردى ، وخالص ومنغشوش ، حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوروبا ومعاملها التي وجدت إقبالا من الأمة هائلا .

وهؤلاء بعض الأجانب يُقيمون الأكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمر الرديئة في كل قرية من قرى القطر ، مهما سحقت وقل عددها ... حتى يكون الصعلوك ، منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومُداين أهلها وسيّدهم ، فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يُحشئ من شرّهم في وادي النيل على الأوربيين .

ولما زاد ضغط السلطان عبد الحميد ، وضيق على الناس حريتهم ، ورماهم بالظلم وسوء الإدارة ، وأخذهم بالظنة والشدة ، كان من الطبيعي أن ينهض الأحرار لمقاومة الظلم فكان من ذلك كتاب ينشرون المقالات القوية في هذا الظلم ويتمرضون للسجن والنفى والقتل .

وعلى الجملة فقد كان من نتيجة هذا وجود حركة فكرية وأدبية في البلاد العربية المحكومة بالدولة العثمانية ، وفرار كثير من الكتاب إلى مصر ، يدّعون بها ويهاجمون السلطان عبد الحميد ونظامه الاستبدادي بمقالات أو كتب أدبية في غاية من القوة والحرارة كما فعل الشيخ ناصيف اليازجي في بيروت ، وكما فعل ابراهيم المويلحي في مصر في كتابه (ما هنالك) الذي نقد فيه الحكم التركي دون أن يصرّح باسمه ، وكان فعل السيد عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » وكما فعل ولي الدين يكن بعد ذلك في أوائل القرن العشرين .

أما النثر الفني ، ونعني به النثر الذي يقصد فيه إلى الصياغة والجمال والموسيقى والإمتاع الفني أكثر مما يقصد فيه إلى نقل الأفكار ، وتقرير الحقائق - فقد كان رقيه أقل وخطواته أضيق ، ولم يتحرر من سجنه وبديعه طوال القرن التاسع عشر إلا قليلا . وكان أكثر ما يتجلى في الإخوانيات ، والمساجلات الأدبية ، والتقدمة لموضوع اجتماعي ونحو ذلك .

وكثيراً ما يكون للأديب لوان : لون يتأق فيه ويتقيد بالقيود الرسمية ويتصنع فيه ويتكلف ويُعمل ذهنه وخياله للمشور على نوع من أنواع البديع ، أو فقرتين يؤلف بينهما سجعاً ، ويحتذى فيه حذو الأقدمين من الكتاب أمثال بدع الزمان والحريري - ولون يترسل فيه ويتحرر من القيود إذا عرض لموضوع اجتماعي أو سياسي كما فعل محمد المويلحي في حديث عيسى بن هشام ، وكما نرى في كثير من المقالات التي كتبت في هذا العصر .

وقد قلّ هذا الأدب بطغيان الأدب الاجتماعي والسياسي عليه وبحكم أن الناس رأوه ضرباً من ضروب السكّال ورأوا المقالات السياسية والاجتماعية حاجة من حاجات القضاء العقلي والماطني .

وُعدَّ عبدالله باشا فكري مثلاً من أدباء النثر الفني في بعض مقالاته وخاصة إخوانياته ومداعباته . ومن هذه الأمثلة ما كان من المساجلات بين الشيخ عبد الهادي نجا الاياري وشكيب أرسلان . كما أن من هذا النوع المقامات التي قُلِّد فيها الأقدمون مثل مقامات الشيخ ناصيف اليازجي (مجمع البحرين) .

ومما يلاحظ أن النثر السياسي والاجتماعي كان أكثر تأثراً في ترسله ومعانيه بالأدب الغربي وإن اتخذ موضوعاته من البيئة الشرقية . أما الأدب الفني فأكثر تأثراً بالأدب العربي القديم في أسلوبه وقبوده .

وهناك أدريان كيران امتازا بناحيتهما الأدبية الفنية كما امتازا بناحيتهما اللغوية وبسعة الاطلاع ، وقوة النقد ، فأثرا في الأدب العربي في القرن التاسع عشر أثراً كبيراً ، وهما أحمد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجي .

فأما أحمد فارس الشدياق فقد كان لبناني الأصل : كان نصرانيا ، واتصل بباي تونس فأسلم ، ورحل إلى أوربة ، واستفاد من رحلته فيها . وكان واسع الاطلاع في اللغة يدل على ذلك كتبه : الساق على الساق فيما هو الفاريقي ، والجاسوس على القاموس ، وسرّ الليل في القلب والإبدال .

وخدم الصحافة بإنشائه جريدة الجوائب في الآستانة باللغة العربية ، كما كان له فضل كبير في اختيار مصطلحات لكلمات أجنبية لا تزال تستعمل إلى اليوم .

وأناً بجانب جريدة الجوائب مطبعة كان لها الفضل أيضاً في نشر كتب عربية قيمة من الكتب الأدبية القديمة التي عثر عليها في مكاتب الآستانة .

ويُمدّ الشدياق بحث من أعلام الأدب بما كتب من مقالات أدبية وبما تقدم من أحوال اجتماعية ، وبما تبه إليه من أخطاء لغوية ، وبما نشر من كتب قيمة .

ولم يتحرر الشدياق في أسلوبه من قيود العصر القديم من التزام السجع أحيانا ، وتكلم أنواع البدع أحيانا ، ولكنه كان غزير المعاني ، واسع الأفق ، تعرض لموضوعات قلما تعرض لها من قبله ، من وصف لمشاهد اجتماعية في البلاد الشرقية والغربية ، مع الفكاهة الحلوة والنقد اللاذع ، وإن كان يؤخذ عليه فيها التبذل أحيانا إلى ما يترفع عنه الأديب المف .

وأسلوبه أميل إلى الإطناب ، مملوء بالفكاهة ، كثير المترادفات ، عنيف في النقد . وقد مات في عام ١٨٨٧ بعد أن عُمر طويلا ، وبعد أن أغنى اللغة العربية ، بما بعث من كلمات ، وخلق من مصطلحات ، ونشر من كتب ، وأحيا من نقد .

ومن أمثلة نثره الفطمة النائية تصف مصر (الساق على الساق ، الفصل السابع ٢٠٣) « بلد الخير ومعدن الفضل والكرم ، أهلها ذرو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب ، وفي كلامهم من الرقة ما يغنى الحزين عن التطريب ، إذا حيوك فقد أحيوك ، وإن سلموا عليك فقد صلوك ، وإن زاروك زادوك شوقاً إلى رؤيتهم ، وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلاً عن مجالسهم ، أما علموها فإن مدحهم قد انتشر في الآدق ، وفات خرم من سواهم وفق ، بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه مالا يمكن المبالغة في إطرائه وكلامهم فصيح اللهجة ، بين الكلام ، سريع الجواب ، حلوا المفاكحة والمطارحة ، وأكثرهم يميل إلى هذا النوع الذي يسمونه الانفاط وكأنه المحارزة وهي مفاكحة تشبه السباب وهو أشبه بالأحاجي فإن لم يكن قد تدرّب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً وإن يكن شاعراً . وكلامهم يحب السماع والاهو والخلاعة وغناؤهم أشجى ما يكون فلا يمكن لمن ألفه أن يطرب بغيره ، وكذلك آلاهم فإنها تكاد تنطق عن العارف بها ، وأعظمها عندهم هو العود ، وقلّ اعتناؤهم بالناي ، ولم في ضرب العود طرق وفنون تكاد تكون من المميّيات ، غير أنني أذم من غنائهم شيئاً واحداً ، وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أو مواعل ، مراراً متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام ، ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتعلمين على الفن ، وبكس ذلك طريقة أهل تونس فإن غنائهم أشبه بالترتيل ، وهم يزعمون أنها كانت طريقة العرب في الأدلس . . . »

وربما خلفه في بابيه إبراهيم اليازجي وهو لبناني الأصل عاش من سنة (١٨٤٧ - ١٩٠٦) وهو ابن الشيخ ناصيف اليازجي الأديب المشهور الذي تقدم ذكره ، مال إلى الصحافة أول أمره فكتب في جريدة الصباح في بيروت ، وتلم البيان وآداب اللغة العربية في إحدى مدارسها ، ثم تحول إلى مصر ، وأشأ بها مجلة البيان .

وكان مثقفاً ثقافة واسعة في اللغة العربية والفرنسية وكان يعرف العبرية والسريانية . وعرف بكثرة التحريم والتدقيق فيما يكتب ويبحث ، لا يرضى أن يخرج شيئاً للناس من آثاره حتى يُطيل النظر فيه ويُجمل يده في إصلاحه وتعديله مراراً ولذلك قلّ إنتاجه إذا قيس بمجهوده ومدة اشتغاله .

وقد شارك أحمد فارس الشدياق في كثير من صفاته من اتساع في معرفة اللغة العربية وآدابها ونقد للتعبيرات والأساليب الشائعة في زمنهما وتوجيه الكتاب والأدباء إلى أن يتقنوا ما يفشون ، ويجودوا ما يكتبون ؛ كما اشترك بوضع كثير من المصطلحات اللغوية .

وقد شاء القدر أن يتساجل الرجلان ، حين نقد أحمد فارس الشدياق أباه الشيخ ناصيف اليازجي عقب وفاته ، فاضطر إبراهيم للدفاع عن أبيه وقد كان أحمد فارس الشدياق إذ ذاك تيف على السبعين ، وكان إبراهيم اليازجي شابا ، وأمل هذا هو ما وجهه إلى التزوّد من اللغة وحذره حذو أحمد فارس الشدياق في الميل إلى النقد مع كثرة البحث وسعة الاطلاع .

وأخرج اليازجي كتاباً تتجلى فيها مواهبه وأبحاهاته ، فله كتاب لغة الجرائد نقد فيه الأساليب والألفاظ التي يكثر استعمالها في الجرائد والمجلات مما لا يتفق وفصيح اللغة .

وله نجمة الرائد في المترادف والتوارد ، أخرج منه جزئين وبقي الثالث بناء على الإنسان وصفاته ، وما يتصل به ، يذكر في كل فصل الجمل الخنارة والألفاظ المنتهية التي تستعمل في المعنى الواحد على نحو أوسع مما فعل صاحب الألفاظ الكتابية ، وما فعله المصري في فصول من كتاب زهر الآداب .

كما نشر نندأ له على محيط المحيط للبستاني . وألف شرحاً جميلاً لديوان المتنبي كان بدأه أبوه من قبله بتعليقات على الأبيات ، وهو شرح تتجلى فيه مواهب اليازجي من دقة وتركيز ، وأداء للمعنى من غير إكثار .

وهو كسائر كتاب عصره لم يتحرر من السجع في كتاباته الأدبية ، أما مقالاته في البحوث اللغوية ونحوها فقد تحرر فيها من السجع غالباً لطبيعة الموضوع .

وهو يميل إلى تقليد الأقدمين في تحريره لرصانة العبارة ، وحنن السبك ، والدقة في اختيار اللفظ ، ويتحد مع الشدياق في ميله إلى الإطناب في مقالاته النقدية وإن لم يبلغ في ذلك مبالغه ، ويمخافه في غلبة الجدّ عليه ، وقلة الفكاهة والمزاح .

ومن أمثلة مقالاته هذه القطعة التي كتبها عن (الجرائد في القطر المصري) في مفتتح السنة الأولى من مجلته الضياء (١٨٩٨ — ١٨٩٩) .

« من ورد الديار المصرية في هذه الأيام ورأى أن في القاهرة وحدها ماينيف على خمسين جريدة بين يومية وأسبوعية وشهرية ، ثم قابل بين حالما اليوم وما كات عليه من زُهاء عشرين سنة حين لم يكن فيها إلا جريدة واحدة هي الجريدة الرسمية ، تبين المسافة التي جازها هذا القطر في هذه المدة اليسيرة وما حدث في نفوس أهله من النهضة الأدبية ...

بيد أنك إذا تفقدت تلك الجرائد وجدت أكثرها بعيداً عن المنزع الذي تقتضيه حالة القطر غير متلق تلك النهضة بما يرفع الأمة من كبوتها .. لأن أكثرها لاخطة لها إلا أحاديث السياسة ومزاعم أربابها تنلو على القراء في هذا القطر ما يُتحدث به في مجالس لندرا وبرلين وما يتخرّص به سياسيو باريز و بترسبرج ... مما لا يهمّ المصري في حالته الحاضرة الوقوف على شيء منه .. فضلا عن أن هذه المباحث إنما هي من غايات المدنية لا من مبادئها ، وإنما تتلقاها الأمة بعد أن تستوفي قسطها من ضروريات العلم وتستمد لفهم ما يُلقى إليها من ذلك بعد معرفة المقدمات التي تفيد تصوّره .. وبألت شعري ما الذي يقع في ذهن العاى من مكاشفته بأسرار الممالك ، وهو لم يسمع من أمر تلك الممالك إلا بأسمائها ولم يقف على شيء من تواربها وسائر أحوالها ، وكيف يستطيع أن يتشغل وقائع حرب بين أمتين وهو لا يعلم موقع بلادها من الأرض ؟ ..

ثم على تسليم أن ذلك كله سائغ وأن المقصود به الفئة المتنوّرة من الأمة وهي أقل من القليل فما الداعى إلى وجود عشرات من الجرائد تكرر الخبر الواحد مع وحدة المشتركين في أكثرها ؟ .. وكثيراً ما يكون ذلك الخبر بالعبرة الواحدة لأنه في جميعه من معرّب عن جرائد الأجانب حتى ما يتعلق بسياسة القطر نفسه . وهذه أخبار النظارات وهي بين ظهرائى كتابنا لا يكادون يتعلّقون بالنبا التافه منها إلا استراقاً واستشفافاً من وراء حجاب ؛ وهذه أخبار مواقع السودان وهي متصلة بمصر وفيها جيش مصر وأمواها تدارها جرائدنا عن جزائد انكلترا وغيرها فلا تصل إلا بعد أن تقطع البرّ وتخوض البحر وتأتيها عن طريق هو أبعد من السودان بمراحل .

ثم أين نصيب العاى من تلك الجرائد وعليه أكثر رواجها .. وهل يكتفى منها بما نسرده بعد ذلك من خبر زفاف أو نعى وما يقع من قتل أو سرقة ، وما يتوخاه الكاتب

أو المكاتب من إطراء بعض ذوى الشأن لغرض في النفس أو الوشاية ببعض المستخدمين ..
أو ما أروع به بعض تلك الجرائد من نثت سموم التعصب والشقاق .. أين الكلام فيما ينمى
ثروة البلاد .. ومتى رأينا فيها حضاً على إحياء الصنائع .. ثم أين الفصول المطولة في تهذيب
أخلاق العامة وإصلاح آدابها ؟ ..

ومعلوم أن الجرائد نثت تأثيراً في نفوس قرائها ، لأنها الجليس الدائم والمشير الملائم ،
يقرأها الرجل في نأديه ، ويأنس بها في خلوته ، ويختلف عليها في أوقات فراغه ، ويتكرر
عليه حديثها في كل يوم ، حتى تنطبع حروفها في مخيلته ، وترسم ألقاظها على أسلة لسانه ؛
فإذا تكلم نطق بما تتلو عليه ، وإذا تناجت خواطره لم يمرّ بها إلا ماتلقن من أقوالها ، إلى
أن تفتش خطتها في صفحة اعتقاده ويسترسل اليها برأيه وهواه ، ولا سيما إذا لم يسبق إليه
من العلم ما يزاحم آراءها ، ولم يكن بين يديه ما ينصرف إلى تلاوته دونها بحيث تكون هي
المورد الوحيد الذى تستمد منه بصيرته ، فإن ما يرد عليه منها يتجزأ بأجزاء نفسه ويرسخ فيه
رسوخ طباعه حتى يصير من الضروريات التى لا تقبل الزوال ولا تعترضها الشبهات .

* * *

وإلى جانب هذا ولد فن الخطابة في هذا القرن وارتقى ، وقد كانت الخطابة قبل ذلك
ميتة أو شبه ميتة افتقدان الحرية ، وخمود الوعى القومى . والخطابة السياسية لا تنهض إلا
بهذين العنصرين : قدر من الحرية يستطيع به الخطيب أن يعبر عن آرائه ، ويقظة
شعور تدفعه للتفريج عن نفسه بالقول ، ومجاوبة السامعين في هذا الشعور .

وقد كانت الحرية مخوفة لا يستطيع قائل أن يقول وإلا تعرض للسجن والنفى
والموت ، وكان الشعور القومى قد جهد إلى درجة بعيدة فلا يفكر مفكراً إلا في نفسه ؛
وكيف يعيش ، وكيف يتقى الشر ، أما التفكير في الوطن فنزلة لم يبلغها .

قال الشيخ محمد عبده : « إن أهالى قبل سنة ١٨٩٣م كانوا يرون شئاً ونهم العامة
بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن يستنبيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب
إرادته ، ويمتدرون أن سعادتهم وشقاؤهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيائته وظلمه ، ولا
يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه في إدارة بلاده أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من

الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربهم عليه . وكأوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلّم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهب العدد الكثير منهم إلى ماجارهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار .

فلما أثنى إسماعيل باشا مجلس الشورى في سنة ١٢٨٣ بدأ الناس يشعرون بشيء من الحرية وإن كان شعوراً ضعيفاً يساوره خوف وتردد حتى إذا تدخل الأجانب في مصر على أثر سوء الحاة المالية أخذ الناس يتذسرون ، وأخذ وعيهم القومي في التكوّن ، وساعد على ذلك شعور الخديوي إسماعيل باشا نفسه بضرورة إبداء الناس آراءهم وتذسّرهم ، وإذ ذلك ظهر جمال الدين الأفغانى فكان أول خطيب من نوعه : يبلى شعور الناس ويستحثهم للعمل ، وكسب الحقوق ، ورفع الظلم ، والمطالبة بالعدل ، فكان يجلس وحوله الناس في المنهى أو في بيت من بيوت الخاصة ، ويتحدث حديثاً هو أشبه ما يكون بخطابة في جمع صغير ، وأحياناً يخطب في الجماهير ، وقد سمعنا من حدّث عنه أنه كان يخطب سنة ١٨٧٨ في المائة ويقول لهم مامعناه : « إنكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستبداد ، وريتم في حجّر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة إلى اليوم وأنتم تحملون عبء غير الفاتحين ، وتثنون من وطأة الفزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — التي تجمعت بما يتحدّب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون ، فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رءوسكم أعصاب تتأثر فنثير النخوة والحية ، لما رضيت بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه . وأنتم كالصخرة الملقاة في الغلاة لا حسن لها ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون

دمياط ، فهي شهادة بمنمة آبائكم ، وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ،
عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء .
وقد ربي في مصر طبقة تنلده وتحاكيه .

ثم خلفه في النبوغ في الخطابة عبد الله نديم ؛ كان خطيباً شعبياً ، وكان زلق اللسان ،
عارفاً بنفسية الجماهير ، قديراً على التأثير . بدأ حياته الخطابية مذ كان يعلم الإنشاء والأدب
في مدرسة الجمعية الخيرية في الإسكندرية ، فكان يعلم تلاميذ المدرسة الخطابة ؛ ثم كان
يخطب في المحافل ، وقد كثرت في أول عهد توفيق سنة ١٨٨٢ حينما أعلن الدستور ، فسرت
في النفوس هزة فرح ، وأمل الناس أن الحكم النيابي سيصلح كل مفاصد الماضي ، فكان
عبد الله نديم يخطب في الجماهير . من ذلك مثلاً أن جمعية المقاصد أقامت حفلة للاحتفال
بهذا الدستور فافتتحها عبد الله نديم ، وتلاه إبراهيم اللقاني فيبين الفرق بين عهد الاستبداد
وعهد الشورى ، فأعقبه النديم في الكلام في هذا الموضوع ، ثم قام الشاب مصطفى ماهر
(الذي صار مصطفى باشا ماهر فيما بعد) ، فنكلم في الحث على الاجتهاد في العلوم والفنون ،
وأثار الأغنياء حول فكرة إنشاء بنك أهلي يحمي الأهالي من استغلال المرابين ؛ وختم
ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد . فقام النديم بعده يخطب في هذا الموضوع أيضاً . ثم قام
الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكم النيابي ، وطالب أن يكون النواب من المثمنين ، وحث
على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسن القوانين المبينة لحقوق الأفراد ،
فأعقبه عبد الله نديم يخطب في هذا الموضوع أيضاً . ثم قام فتح الله افندي صبرى (وهو فنحنى
باشا زغلول فيما بعد) ، فخطب في الحث على الاتحاد والثبات .

ثم لما كانت الثورة العراقية ، تحوّلت خطب عبد الله نديم إلى التحريض على الثورة
وتأييد عمالي ، فكان يخطب في كل مجتمع : في الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفي
حفلات الأفراح ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان المنني أين تمنى الليلة ، قال في بيت فلان
مع عبد الله النديم .

كان عبد الله نديم إذن لسان الأمة في عهده بخطبه إذا خطب ، وبقلمه في الصحافة
إذا كتب .

ثم خلفه مصطفى كامل (التوفي سنة ١٩٠٨) ، فكان الخطيب البارع في مناهضة الاحتلال الاسكيزى فدعا إلى مصر وحريرتها ، يخطب في مصر بالعريسة ، وفي فرنسا بالفرنسية ، وينقل في البلاد يثير الحمية ، ويشعل نار الوطنية ، ويبعث في النفوس الشهور بالكرامة القومية .

وكان مصطفى كامل حلو الصوت ، جيّد النبرات ، متدفق البيان ، فأثر في النفوس اثراً بالغاً .

ثم كان لتنظيم القضاء في مصر ، وإنشاء المحاكم الأهلية ، ونظام المرافعات ، أثر كبير في نهضة الخطابة القضائية ، بل والسياسية أيضاً . فمظام القضاء أعلى من شأن الحمامة . ولهذا نشأ محامون بارعون في المرافعة ، وكان منهم خطباء قضائيون في المنزلة الأولى مثل إبراهيم المقاني ، وعمر لطفى ، وإبراهيم الهلباوى وغيرهم ؛ كما أن كثيراً من هؤلاء المحامين اشتغلوا بالحركة السياسية فكوا خطباء سياسيين بجانب أنهم خطباء قضائيون .

ح - القصة

لم يكن ينظر إلى القصص في أول هذا القرن على أنه أدب رفيع إلا ما كان من المقامات وأمثالها ، حتى إن ألف ليلة ويلة وقصة عنتره وأمثالها من القصص الأخرى كان يرى فيها الأدباء أنها أدب شعبي وضيع . ولم تتدرّ ألف ليلة ويلة في الأدب العربي إلا بعد أن قدرها الأوربيون ، وإنما علا شأن القصة بعد أن احتك الشرق بالغرب ورأى المناديون أنها تحمل في الأدب الغربي أعلى منزلة ؛ ولذلك بدأ الأدباء في هذا القرن يترجمون عن الأدب الغربي بعض القصص كما فعل محمد عثمان جلال في مصر إذ ترجم أربع روايات فرنسية عن راسين ونشرها في كتاب سماه « الروايات المفيدة في علم التراجيدية » وترجم أربع روايات أخرى عن موايبر في كتاب سماه « الأربع روايات من نخب التياترويات » وكما ترجم قصص لافونتين في العيون اليواقظ .

وكذلك ترجم اللبنانيون عن الإنجليزية والفرنسية بعض الروايات ، ومن أشهرهم في

ذلك سلم البستاني ، ونقولا رزق الله ، ونقولا الحداد .

وكانت الخطوة الثانية هي تأليف الروايات على نسق ما يفعله الغربيون ، وربما كان أول قصة مصرية مُنشأة هي قصة (علم الدين) لعلى باشا مبارك ؛ ألقها في أربعة أجزاء ، وهو ناظر للمعارف غشد جمماً كبيراً من المدرسين ووضع خطتها وهي أن يمحسروا أهم مظاهر المدينة الحديثة كالسكك الحديدية والبريد والملاحة والتيارو والبورصة والبنوك ووسائل الإضاءة إلى غير ذلك ، ثم يكتبوا في هذه للموضوعات ما يجب أن يعلمه الإنسان المنقف كما جمع فيها ما وصل إليه العلم في البحر وعجائبه ، والبراكين والذهب والأحجار ، والصناعة والفلاحة وأشهر النباتات وما يستخرج منها الخ . وكذلك الشأن في الموضوعات الأوربية كما ذات الأوربيين في ما كلهم وملبسهم ، وعادات المصريين في ذلك .

ثم عادات أدبية كاليسر والأرلام والأنصاب عند العرب ، ومعنى المملات وتاريخ القهوة والحشيش .

فلما فرغوا من ذلك صبها في قالب قصة تدخل فيها هذه الموضوعات ، وعارنه في صياغتها عبد الله باشا فكرى .

وجمل بطل القصة شيخاً من الأزهر اسمه الشيخ علم الدين . وقد وصف فيها حياة الشيخ الأولى وكيف تلم في الكتاب ، وتلقى العلم في الأزهر ، وأخيراً حضر رجل إنجليزى من المستشرقين إلى القاهرة فالتقى بالشيخ علم الدين ودرس العربية عليه ، ثم عرض الإنجليزى على أستاذه أن يسافر إلى بلاد الإنجليز ففعل بعد تردد ، وسافر الشيخ إلى إنكلترا ، وكان كلاسراً على شيء في مصر سأله الإنجليزى عنه فيشرحه له ، ثم كلما مرة الشيخ بعد ذلك على شيء في إنكلترا شرحه للإنجليزى للشيخ .

وقد ألفت القصة حوالى ١٨٧٩ وطبعت ١٨٨٢ .

وكانت ضعيفة الحكمة الروائية ، قلل من الروابط فيها ما كدسه من العلوم والمعارف ، وفاته الدقة أحياناً في وصف الشخصيات وتحليلها فهي على كل حال من أوائل القصص المصرية التي خطت الطريق للقصة من بعدها .

وكان قد ساد في أوروبا القصص التاريخي ، فقلد كتاب العرب هذا النمط القصصي ، وألف سليم البستاني طائفة منها مثل زوييا وبدور ، وجاء بعده جرجي زيدان فألف كثيراً منها مثل عذراء قريش ، وغادة كربلاء ، وفتاة غسان ، والعباسة أخت الرشيد ، والملوك الشارد . وقد غلب عليها الناحية التاريخية ، وطفت فيها على الناحية الفنية .

وإلى جانب القصص التاريخي وُضعت قصص أخرى كانت تهدف إلى الحث على الفضيلة وتجنب الرذيلة كقصة سليم البستاني في (الميام في جنان الشام) وقصة نقولا الحداد (الصديق المجهول) وأمثالها .

وبجانب ذلك كانت الروايات التمثيلية فكان لها نصيب في إحياء فن القصص ، وبدءوا كذلك بتمثيل روايات أجنبية بعد تعريبها ، كما فعل (مارون النقاش) من تمثيل رواية البخيل (موليير) .

وفي عهد الخديوي اسماعيل بُنيت دار الأوبرا الملكية (١٨٦٩) ومثلت فيها للمرة الأولى فرقة فرنسية فكان هذا لافئاً لأنظار بعض الأدباء أن يُعتموا بالتمثيل العربي على نمط التمثيل الأوربي . فجاء إلى مصر من لبنان سليم نقاش وأديب إسحق ومعهما فرقة لبنانية مثلت في الإسكندرية (١٨٧٦) . وبعد ذلك مثل يوسف خياط في الأوبرا رواية (المظلوم) واشتهر بعد ذلك أبو خليل أحمد القباني الدمشقي الأصل . مثل أول أسره في سورية ، ثم انتقل إلى مصر .

وتتابع التمثيل بعد ذلك ، ولكنه كان ضعيفاً ، فآرا ، لا يعدو أن يكون خطوة تقدم بها الترقوز وخيال الظل وكان من أهم أسباب ضعفه أن الجمهور المسلم لم يكن إلى ذلك الوقت قد استساغ أن تظهر المرأة على المسرح حتى كان إلى عهد قريب يمثل الفتى دور الفتاة . وإنما أخذ التمثيل يرقى بعض الشيء في أوائل القرن العشرين .

(٤) حركة الترجمة والتأليف والتمثيل

كانت اللغة العربية إلى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف شيئاً مما يجري في أوروبا من (العلوم) التي أنتجتها النهضة الأوربية كالطب والطبيعة والكيمياء والرياضيات فلما

جاء محمد علي باشا أسس نهضته أول الأمر على الجيش وإصلاحه وتنظيمه واحتاج الجيش إلى أطباء ، واحتاج الطب إلى طبيعة وكيمياء كما احتاج الجيش أيضاً إلى أبنية واحتاجت الأبنية إلى مهندسين ، واحتاج المهندسون إلى رياضة ، فنشأ عن ذلك كله الاهتمام بهذه العلوم الطبية والطبيعية والكيمائية والهندسية والرياضية ولم يكن من أهل البلاد أحد يعرفها ، فاضطر محمد علي إلى استدعاء العدد الكثير من الأساتذة الأوربيين ، وخاصة الفرنسيين ، يعلمون أبناء البلاد ، وأبناء البلاد لا يعرفون شيئاً من اللغات الأجنبية ، ولم ينظر محمد علي حتى يعود المبعوثون من المصريين ، فاستعان ببعض من يعرف اللغة الفرنسية من السوريين والمغاربة وجملهم واسطة بين الأساتذة الأوربيين والطلبة المصريين ، فكان الأساتذة يختارون الكتب الإفرنجية ، أو يؤلفونها ويعرضونها على لجنة لدراستها وإقرارها إن كانت صالحة ، فكانت كتب الطب مثلاً تعرض على لجنة من أساتذة المدرسة الطبية تسمى « أرباب المشورة الطبية » فإذا أقرتها نقلت إلى العربية على يد المترجمين وهؤلاء المترجمون قد يكونون ضمفاء في اللغة العربية فيعهدون إلى عالم أزهري يتولى تصحيحها ، وقد بشركون في التنقيح والتصحيح اثنين أحدهما عالم باللغة الأجنبية والآخر عالم باللغة العربية ايتعاوننا في تجويد الكتاب وإتقانه .

وانتقلت البلاد نقلة ثانية بتأسيس مدرسة الألسن ، وكان طلبتها يجيدون اللغتين فيترجمون ويتولى رفاة بك تصحيح ما ترجموا ، وبذلك أخرج هؤلاء وهؤلاء كتباً قيمة كانت أساس النهضة في العلوم الحديثة ، وأعادوا نفس الطريقة التي اتبعت في العصر العباسي حين نقل العرب علوم اليونان وغيرهم إلى العربية . كما كان التاريخ يعيد نفسه من أن حركة الترجمة تبدأ أولاً في العلوم المجهولة ثم يتبعها التأليف ، فقد بدأ المائدون من البعثة والمتخرجون في المدارس المصرية وفي مدرسة الألسن يؤلفون في الطب وغيره من هذه العلوم . ومن الطريف في ذلك أنهم كانوا يسمون الكتب العلمية على نمط ما سميت به في العصور الوسطى فيسمون الكتاب مثلاً « غرر النجاح في أعمال الجراح » أو « أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض » أو « السراج الوهاج في التشخيص والملاج » أو « الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة » وهو في الفلك لإسماعيل باشا الفلكي وهكذا .

وهذه العلوم وإن كانت لا تمت كثيراً إلى اللغة العربية وآدابها فهي تؤثر في النهضة

الإدبية من ناحيتين : ناحية أن هذه العلوم ترقى الأذهان وتوسع الأفكار ، وقد علمتنا التجارب أن النهضة إذا حدثت في جانب من جوانب العلوم آتت سريعاً في الجوانب الأخرى من العلوم والفنون . أضف إلى ذلك أن الأدب يعتمد في إنتاجه على كل شيء ، والأديب يجب أن يخزن في ذهنه كثيراً من شتى أنواع الحياة والعلوم ، ولا بد أن يأتي عليه يوم يخرجها من مخزنه ليصوغها في فنه وأدبه . هذا إلى أن رقى العلوم ولو كانت طبية أو طبيعية ترقى العقل وتجمله أبعده عن التخريف والأدب مملوء بالتخريف إن كان منتجة خرافياً ومنتف عاقل إن كان منتجة متفقاً عاقلاً .

على أن الأدب نفسه خضع لهذا القانون فبدأ كثير من عارفي اللغات الأوربية يترجمون كثيراً من أحسن ما قرءوا فيها فترجم سليمان البستاني الياذة هوميروس إلى العربية شعراً فكان عملاً جليلاً وضع تحت أنظار العرب ذخيرة من الذخائر التي تعدُّ مصدر وحي لأدباء الفرنج وقدمها بمقدمة طويلة قيمة نظر فيها إلى الأدب العربي نظرة عميقة على ضوء الإلياذة . وكما ترجموا في هذا القرن أيضاً كثيراً من الروايات الإنجليزية والفرنسية والروايات من مثل روايات شكسبير وموليير ودوماس وشاتوبريان ولافونتين وراسين وكورني . وحلت هذه الروايات عند القراء المثقفين المركز الذي كان تحمله قصص عنتره والوزير سالم وسيف بن ذي يزن وغيرها . وكانت ترجمتها أساساً لما ألف في هذا اللون من الأدب بعد ذلك .

التأليف في اللغة والأدب

شملت هذه النهضة التأليف في اللغة والأدب وما يتصل بهما من تأليف في وسائلهما من نحو وصرف وعروض وبلاغة . ففي مطلع هذا القرن التاسع عشر كتب الشيخ حسن المطار (المتوفى ١٨٣٤) مجموعة من إنشائه سميت (إنشاء المطار) وكتب الشيخ حسن قويدر الخليلي (المتوفى ١٨٤٥) كتابه (نبل الأرب في نظم مثلثات العرب) ذكر فيه الألفاظ التي وردت بالحركات الثلاث مع شرح كل شكل من أشكالها وقد طبع الكتاب في مصر وترجم إلى اللغة الإيطالية كما ألف رسالة (الأغلال والسلاسل في مجنون اسمه عاقل) سخر فيها من تصرفات رجل سخيف اسمه عاقل انتحل قصيدة لغيره ونسبها لنفسه .

وفي سورية كان من أبرز المؤلفين الشيخ ناصيف البازجي فقد كتب (مجمع البحرين) كما ألف كتباً خطأ فيها خطوة جديدة في تعليم النحو والصرف والعروض والقوافي والبيان فألف (فصل الخطاب في النحو والصرف) و (نقطة الدائرة في العروض) و (النجان في علم البيان) وألف أحمد فارس الشدياق (التوفى ١٨٨٧) كثيراً من كتب اللغة كالجاسوس على القاموس نقد فيه قاموس الفيروز بادى و (سرّ الياال في القلب والإبدال) كما ألف في النحو والصرف (غنية الطالب) .

واشتهر في مصر من مؤلفي الكتب الأدبية الشيخ عبد الهادي نجا اليباري (التوفى ١٨٨٨) وهو عالم أزهري اتصل بالخليوي اسماعيل واختاره إماماً للمهنية ومفتياً له ، وشارك في الشعر والأدب واللغة وامتاز بها وأكثر من التأليف فيها فألف كتاب (سعود المطالع) في مجلدين جمع فيه كثيراً من العلوم والفنون وبناه على شرح لغز في اسم الخليوي اسماعيل ، وله (القواكه) في الأدب و (الدورق) في اللغة ، وله مكاتبات ورسائل دارت بينه وبين الشيخ إبراهيم الأحذب .

وكان الشيخ حسين المرصفي (التوفى ١٨٨٩) من عيون المؤلفين ، وهو عالم من علماء الأزهر ، وكان كفيفاً ، وتزعم الحركة الأدبية في مصر ، وكان من أبرز تلاميذه محمود سامي البارودي وتولى التدريس في دار العلوم فكان له أكبر الفضل على الأوائل من خريجيها وقد اجتهد في تعلم اللغة الفرنسية واستناد منها وألف كتاباً قيماً بعد خطوة جديدة في التأليف في علوم اللغة العربية وهو (الوسيلة الأدبية في العلوم العربية) ، عني فيه عناية خاصة بعلم الأدب كما كان من أثر معرفته بالفرنسية أن وضع كتاباً سماه (الكلم النمان) شرح فيه معنى الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والترية .

وكان من أشهر المؤلفين في اللغة والأدب الشيخ إبراهيم البازجي ، وقد عرضنا لترجمته وتآليفه فيما سبق ومن تأليفه الأدبية واللغوية شرحه لديوان المتنبي وكتابه نجمة الرائد ولغة الجرائد .

ووجدت في سورية حركة قيمة في تأليف المعاجم على نمط قريب التداول اتبع فيه أسلوب (المصباح المنير) من ترتيب الكلمات حسب أوائلها وإفراد كل معنى في أول السطر ،

وكان من أوائل من ألف في ذلك بطرس البستاني (المتوفى سنة ١٨٨٣) في معجمه «محيط المحيط» في جزئين كبيرين أدخل فيه بعض المصطلحات العلمية والألفاظ الوليدة وبعض الألفاظ العامية مع التنبيه عليها، وقام بعمل آخر أجل شأنًا وهو دائرة المعارف، مرتبة على حسب الحروف الأبجدية في العلم والأدب والتاريخ والجغرافية وسائر العلوم على نمط دوائر المعارف الأجنبية، وقد أنتم في حياته منها ستة مجلدات كبيرة، وأنتم السابع والثامن منها ابنه سليم، وتولى أبنائه الباقيون التاسع والعاشر والحادي عشر بمساعدة ابن عمهم سليمان البستاني ووصلوا فيها إلى مادة (عثمانية).

واشتهر من مؤلفي اللغة العربية رجل هندي هو صديق حسن خان (المتوفى ١٨٨٩) عاش في الهند وتزوج ملكة بهوبال وجمع حوله كثيراً من العلماء واشتغل معهم في تأليف كتب كثيرة في الدين واللغة والأدب والبلاغة وغيرها، ومن أشهرها البانعة في أصول اللغة ولقطة العجلان في اللغة أيضاً، وله موسوعة قيمة تسمى أبجد العلوم، ذكر فيها كل علم عربي وقدم له بقدمة في تاريخه، ثم ذكر أسماء أشهر الكتب التي ألفت فيه والتعريف به.

ولسنا ننسى رجلاً ممتازاً مستشرقاً عاش في لبنان وكان له أثر في النهضة العلمية والأدبية وهو «كرنيلوس فنديك»؛ هولندي الأصل، أمريكي النشأة، تعلم العلوم الطبية والرياضية في أمريكا، ثم رحل إلى بيروت سنة ١٨٤٠ وأخذ في دراسة اللغة العربية حتى أتقنها، وسحب بطرس البستاني، وعنى بالتأليف فأغنى المكتبة العربية التي تمد بحق خطورة في التأليف على النمط الحديث في موضوعاته المختلفة سواء كانت علمية أو أدبية وإن كان أكثرها علمياً. وأشهر هذه التأليف النقش على الحجر في تسمية أجزاء كل جزء في علم من العلوم كالنفساء الطبيعية والكيمياء والجغرافيا الطبيعية والفلك والجيولوجيا... الخ... وله كتاب لطيف اسمه «المرأة الوضية في الكرة الأرضية» جمع فيه بين الجغرافية والتاريخ و«محاسن القبة الزرقاء» في الفلك.

وعلى الجملة فقد ألفت في اللغة والأدب كتب كثيرة في القرن التاسع عشر تلونت بلون النهضة وتأثرت بالكتب الإنجليزية من حيث النظام والترتيب والتقريب إلى الأذهان

سواء في ذلك لغتها وأسلوبها أو وضعها ، كما اتجهت العناية الكبرى في كثير من هذه الكتب إلى طلبة المدارس وأمثالها في تبسيط العلوم العربية كالنحو والصرف وعلوم البلاغة فاختر لها أقرب التعبيرات وأسهلها ، وتجنبت فيها الحواشي وما لا ينبغي عليه عمل . وكان أكبر الفضل في ذلك لرفاعة الطحطاوي ومدرسته ، وعلى مبارك ومدرسته في مصر ، وناصيف اليازجي وبترس البستاني ، وفانديك ومدارسهم في لبنان .

التأليف في التاريخ والجغرافية والرحلات

ويتصل بعلوم الأدب التاريخ والرحلات . وقد طلع القرن التاسع عشر وأهم مؤرخ فيه عبد الرحمن الجبرتي (المتوفى سنة ١٨٢٥) ، كان من علماء الأزهر ولكنه كان ممتازاً بميله إلى الفلك والاشتغال به على النمط المؤلف في العصور الوسطى ، كما امتاز بميله إلى التاريخ وقد وضع كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » أرتخ فيه القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، ذا كراً أهم الأحداث اليومية التي عاصرها وشاهدها أو سمع بها ، وترجم فيه لعلماء زمانه وأعيانه . ويعد الكتاب من أهم المصادر التي تؤرخ الحملة الفرنسية على مصر وأوائل حكم محمد علي باشا . والمؤلف وإن كان ممتازاً في تحريره للحقائق وبذله الجهد العظيم في الوقوف على دقائقها ودقة وصفها وصدقها والتنبه إلى الحديث عن كل ما يتصل بالشعب وعدم الانتصار على حوادث الحروب وما يجري في القصور .. إلا أنه يؤخذ عليه السذاجة في طريقة التأليف وعدم النظرة الشاملة والتعمق في الأسباب والنتائج كما هي ميزة التأليف الحديث في التاريخ ، كما يؤخذ عليه ضعف أسلوبه الأدبي وتأثره بأساليب عصره التي هي أقرب إلى العامية .

وقد أثمر بعد ذلك في التأليف التاريخي الاطلاع على كتب المؤرخين من الإفرنج وترجمة بعضها . فقد ترجم رفاعة الطحطاوي مثلاً كتاب « قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، وترجم غيره كتاب « أسباب قيام دولة الرومان وانحطاطها » في فلسفة التاريخ ، وكتاب « روح الشرائع » لمونتسكيو ، وكتاب « تاريخ شارلمان » و « تاريخ شارل كان » وتاريخ « فرنسا العام » إلى غير ذلك ، فهذه الكتب أطلعت كتاب العرب على لون جديد

من ألوان الكتابة والتأليف وجملتهم يؤمنون على نمط متأثر بالنمط العربي والغربي معاً ،
فألف مثلاً سليم النقاش البيروتي (المتوفى ١٨٨٤) كتاب « مصر المصريين » في تسعة أجزاء
أرّخ فيه حوادث الثورة العرابية وقسمه إلى ثلاثة أقسام : قسم في تاريخ الأسرة الخديوية
إلى خروج الخديوي اسماعيل من مصر ، وقسم في ولاية الخديوي توفيق إلى انقضاء الحوادث
العرابية وتناجها ، والقسم الأخير في وصف محادثات العرابيين وصور محاضرها الرسمية .

كما ألف محمد بيرم التونسي (المتوفى ١٨٨٩) كتابه « صفوة الاعتبار بمستودع
الأمصار » . والمؤلف تونسي الأصل ، سافر إلى أوروبا مراراً وفارق تونس على أثر احتلال
فرنسا لها ، وضمن كتابه وصف رحلاته في أوروبا ومصر والشام والحجاز وغيرها ، والحياة
الاجتماعية في هذه البلاد وصفاً قبيحاً .

ومن أهم الكتب الجغرافية التاريخية المخططة التوفيقية لملي باشا مبارك (المتوفى ١٨٩٣)
وصف فيها مصر و بلادها وخططها ومدارسها وشوارعها وجوامعها وقراها في عشرين جزءاً
وكان إذا ذكر بلداً ترجم لأشهر علمائه . وقد خصص الجزء الثامن عشر للنيل ومقاييسه
وارتفاعاته من قديم الزمان إلى أيامه ، والجزء التاسع عشر للترع والخلجان ، والجزء العشرين
للقود الإسلامية وتاريخها ؛ وقد جمع فيه في كثير من المواضع ما ذكره مؤرخو العرب مثل
المقريزي ، ومؤرخو الفرنج مثل كاترمير .

وأخيراً جاء جورجى زيدان فنحنا بالتاريخ نحواً جديداً اتبع فيه أسلوب الفرنج في جمع
النصوص وبجملتها والاستنتاج منها ودراسة الأسباب والنتائج .

وبجانب هذا كان هناك مؤرخون يجرون على النمط القديم في التاريخ أمثال أحمد بن
زبني دحلان المسكى (المتوفى ١٨٨٦) فقد ألف كتاباً كثيرة في التاريخ على النمط القديم
مع تبسيطها وتقريبها إلى الأذهان ، ألقها كلها في مكة ، وأظهرها « الفتوحات الإسلامية »
و « تاريخ الدول الإسلامية » وضعه في جداول ، تدل على الروح الحديثة التي مرت في
التأليف ، وكتاب « خلاصة الكلام في أسراء البلد الحرام » وكتاب « الفتح المبين في
فضائل الخلفاء الراشدين » .

وكذلك فعل السلاوى المراكشى (المتوفى سنة ١٨٩٧) في كتاب قيم سماه (الاستقصا

في أخبار المغرب الأقمى) استند فيه على ما كتبه المؤرخون الأندلسيون وغيرهم في تاريخ المغرب فجاء أحسن مجموعة في بابها .

وكما عُنوا بالتاريخ عنوا كذلك بالرحلات ، وتاجعوا في ذلك ما كان لأسلافهم من مثل ابن جبير وابن بطوطة ، من ذلك رحلة شهاب الدين الألوسى (المتوفى ١٨٥٤) وصف فيها رحلته إلى الآستانة وسماها (رحلة الشمول في الذهاب إلى اسنابول) ، ورحلة إبراهيم النجار اللبنانى (المتوفى ١٨٦٣) التى وصف فيها سفره إلى أوروبا والآستانة وسماها (الصباح السارى) . ورحلة رفاة الطحطاوى (المتوفى ١٨٧٣) التى وصف فيها رحلته إلى فرنسا وسماها (خلاصة الإبريز والديوان النفيس) . ورحلات أحمد فارس الشدياق ، وقد رحل إلى مالطة فآلف كتاب (الواسطة إلى أخبار مالطة) ورحل إلى أوروبا فآلف كتابه (كشف الحجاب عن فنون أوروبا) . ورحلة عبد الله باشا فكرى (المتوفى ١٨٨٩) التى وصف فيها ماشاهده في رحلته إلى أوروبا وسماها (إرشاد الأبا إلى محاسن أوروبا) وكانت الحكومة المصرية استدته سنة ١٨٨٨ لرأسه الوفد المصرى مؤتمر المفسرفين في استوكهلم وقد بدأ في إعدادها بعد رحلته ولكنه لم يتمها ، فآتمها ابنه أمين باشا فكرى وكان قد رحل معه ونشرها سنة ١٨٩٢ .

وإلى جانب الترجمة والتأليف نشطت حركة نشر الكتب العربية القديمة وطبها ، وتأسست جمعيات علمية للقيام على اختيار الكتب الصالحة ونشرها ، فقد أسست مثلاً جمعية المعارف بمصر ويرأسها محمد عارف باشا وأنشأت مطبعة لنشر كتبها وجمعتها شركة مساهمة ، ونشرت من الكتب أسد الغابة لابن الأثير ، وألف باء ، وتاج العروس وغير ذلك من الكتب القيمة . وتأسست شركة طبع الكتب العربية سنة ١٨٩٨ في مصر أيضاً وكان من أعضائها أحمد تيمور باشا وحسن باشا عاصم وعلى بك بهجت ، وقد نشرت كتاب الوجيز في فقه الإمام الشافعى وسيرة السلطان صلاح الدين وفتوح البلدان للبلاذرى والإحاطة في أخبار غرناطة إلى غير ذلك . وفى الآستانة أسس أحمد فارس الشدياق مطبعة الجوائب وقام بنشر كثير من الكتب الأدبية القيمة مثل الموازنة بين أبى تمام والبحترى ونسيم الصبا للحاجى ودبوان البهترى وغيرها كما قام كثير من الأفراد بطبع الكتب القديمة في مطبعة

بولاق وغيرها من المطابع ، ومثل ما حدث في مصر حدث في غيرها من الأقطار العربية فنشرت الكتب الكثيرة في بيروت وحلب ودمشق والأتانة ومكة وإيران والهند وغيرها من عواصم وأقطار البلدان العربية والإسلامية .

ثم نظمت المكتبات العمومية في مصر وسُهِلت وجوه الانتفاع بها فأُستت المكتبة الحديوية سنة ١٨٧٠ ، وجمع فيها ما كان مفرقاً في المساجد معرضاً للتلذذ والضباع . وأعدت عند إنشائها مكان لإتناء المحاضرات ، ومكان للمراجعة في أوقات معينة . كما أُستت المكتبة الأزهرية ونظمت سنة ١٨٧٩ ، وأستت مكتبة البلدية في الإسكندرية سنة ١٨٩٢ إلى غير ذلك من المكاتب العامة . وحدث في الأقطار العربية الأخرى ما حدث في مصر فنظمت المكتبة الظاهرية في دمشق ، وكان أشار بتكويرها مدحت باشا على أثر مجيئه الشام واليا عليها ١٨٧٨ كما أنشئت ونظمت مكاتب كثيرة في حلب وبيروت والعراق .



كلّ هذا النتاج من شمر ونثر وقصص ، وكلّ هذه الحركات من ترجمة وتأليف ونشر ذابت في العالم العربي فعملت في ترقية عقله ، وإرهاق ذوقه وتقلته نقلة كبيرة يشعر الباحث بمعظمها إذا قارن بين حالة الأمة العربية في أوائل القرن التاسع عشر وحالتها في في أواخره : والبصيص الضئيل من النور الذي كان في أوله صار شعلة كبيرة متوهجة في آخره . وكان هذا القرن قرناً مباركاً عظيم الفائدة بسبب عوامل النهضة التي شرحناها . فالقرن التاسع عشر إذا قيس بالخمسة القرون أو الستة السابقة عليها كان أعظم منها فائدة وأكبر نفعاً فقد قطع في التقدم شوطاً وكان له من أثر الثورة الفكرية والذوقية ما لم يكن لتلك القرون قبله . ومع هذا فإن البذور التي بُذرت فيه نمت وتحوّلت إلى شجيرات صغيرة ولم يظهر نموّها الكبير ولم تؤت من الثمار الناضجة إلا في القرن العشرين وهذا ما سنورخه بعد إن شاء الله .